من وراء القضبان

(٢)

سفاح المعادى

وحوادث أخرى

د. نبيـــل راغب



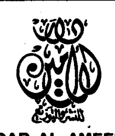
سفاح المعادى

وحوادث أخرى

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

صدق الله العظيم



DAR AL AMEEN

طبع ● نشر ● توزيع

القاهرة : ١٠ شارع بستان الدكة من شارع الألفي (مطابع سجل العرب)
ت : ٩٣٢٧٠٦
ص.ب : ١٣١٥ العتبة ١١٥١١ .

الجيزة : ١ شارع سوهاج من شارع الزقازيق - خلف قاعة سيد درويش بالهرم -
ص.ب : ١٧٠٢ العتبة ١١٥١١ .

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

رقم الإيداع ١٩٩٤/٧٨٧٤

I.S.B.N.

977—5424—73—9

مقـــدمة :

من أقوال السابقين ، إن الله سبحانه وتعالى عندما وزّع الأرزاق على الناس ، لم يرض إنسان برزقه قط ؛ ولكنه عندما وزّع العقول عليهم ، رضوا جميعاً ، واعتبر كل إنسان أن عقله هو أرجح العقـول وأكملها ، ولا يرضى به بديلاً ، نقـول هذا ونحن نقـدم لهـذه السلسلة التى تعـرض نمـاذج مـخـتلفـة ، متناقضة ، ومتضادة ، من السلوك البشرى الإجرامى ، فنحن نعلـم أن الجـريمـة سلوك بشـرى ، فـيـه التـخطيط والتـدبيـر والتنفيذ ، وكلها مـراحل يستـعمل فـيـها الفـاعل عقله ويكون راضياً عن تدبيره مقتنعاً بوصوله للهدف فى غفلة من الضحية والمجتمع .

ونحـن هـنا ندعـو القارئ العزيز أن يتدبر وهـو يقـرأ ما نعرضه فى الصفحات التالية من قضايا ، ففيها تنوع واختلاف ، فيها أثر الأسرة ، المجتمع ، التعليم ، الجهل ، الانحراف ، القيم الروحية ، الغرور ، الطمع والجشع، البيئة والتعليم .

نحن لا نقدم موعظة ولا نصيحة ؛ ولكننا نصحب القارئ إلى قلب المجتمع ، إلى الشارع ، إلى مدرسة الحياة ، وأيا كان القارئ العزيز ، أبًا ورب أسرة أو أمًّ مسئولة عن سلامة أبنائها أو شاباً يتطلع إلى المستقبل بكل طموحه من الثراء ، أيًا ما كنت عزيزى القارئ ، فستجد نفسك معنا فى هذا الجمع من الكوارث والقضايا الحقيقية ، نصابون ، محتالون ، قتلة ، فنانون أعمتهم الشهرة ، مدمنون استعبدهم الكيف ففعلوا كل شيء ، وكانت النتيجة ، ضحايا وندم حيث لا ينفع الندم ؟ ولكن الأهم ، والسبب الذى نقدم من أجله هذه السلسلة ، هو الدرس المستفاد ، هو محاولة لإضاءة الطريق ، مستفيدين من أخطاء وتجارب الآخرين وبين أعيننا وفى عقولنا وقلوبنا حقيقة مؤكدة ، هى أن الجريمة لا تفيد ..



الاعتراف .. ليس سيد الأدلة !!

دار الزمن دورته الحتمية ، فوجد نفسه وحيداً بعد أن كان بيته خلية من النحل الذى يقطر عسلاً صافياً ليل نهار.

تخرج ابنه الأكبر فى كلية الطب وكان ثانى دفعته ، لكنهم رفضوا تعيينه معيداً بالكلية ، واخترعوا أسباباً أخرى عينوا بها الثالث والرابع والخامس ؛ لأنهم كانوا من أقرباء كبار الأساتذة ورؤساء الأقسام ، لم يكن لطموحه حدود ، وكانت نقمته أشد على كل من يقف عقبة فى سبيل أهدافه التى لا يتنازل عنها أبداً .

وبدلاً من أن تظل نقمته حبيسة صدره فتنفجر به لعجزه عن التنفيس عنها بأسلوب إيجابى ، جمع أوراقه وسافر إلى بريطانيا ليواصل تفوقه هناك ويحصل على شهادة الزمالة فى كلية الجراحين ، وتألق اسمه هناك ؛ لكن يبدو أن طموحه الذى لا يعرف لنفسه حدوداً ، جعل بريطانيا كلها تضيق به ، فنقل نشاطه إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث أصبح واحداً من كبار جراحى القلب هناك ومديراً لمركز طبى شهير هناك .

كـان فى البـداية يحـرص على أن يقص على أبيـه كل تفاصيل نجاحه فى الخطابات التى كانت ترد منه كل أسبوع تقريباً ، فهو – على حد قوله : لم يكن للنجاح مذاق عنده إلا إذا شاركه أبوه فيه ، وعندما أصبح الاتصال بالتليفون شيئاً عادياً ، فما كان عليه سوى أن يدق على أزرار الجهاز فى كليفلاند ليدق الجرس فى بيت أبيه فى المعادى وتتدفق العواطف والمشاعر ، وتقصر المسافات الشاسعة ، وتسمع دقات القلوب ، وتنطلق الدعوات الحارة .

لكن الزمن لا يتـوقف أبداً . بدأت المكالمـات تقل مع اعتذار متجدد بضيق الوقت وكثرة السفر لحضور المؤتمرات الطبية العالمية وكتابة الأبحاث التى تلهث وراء كل جديد فى دنيا الجراحة بأحدث وسائل التكنولوچيا ، ولكى يتخلص من بقايا إحساس قديم بالذنب عرض على أبيه وأمه الانتقال إلى كليفلاند للعيش معه معزّزين مكرّمين ليكونا تحت رعايته الطبية فى سن الشيخوخة ؛ لكنهما اعتذرا برفق ؛ لأنهما لا يريدان أن يثقلا عليه ، وفى الحقيقة أنهما لم يرغبا فى أن يصبحا كماً مهملاً بعد أنا كانا ملء السمع والبصر !! فسيكون بعيداً عنهما كما هو بعيد عنهما فى مصر ، وخاصة أن زوجته أمريكية ولا تقيم لمثل هذه الارتباطات العاطفية

وزناً ، بل إنه لم يكرر الدعوة عندما اعتذرا ، بل ولم يلمح إليها ثانية ولو بطريقة عابرة مما جعل أمه تعلق بقولها:

– لم يتعدّ الأمر أن يكون عزومة مراكبية !! .

وجرفته دوامة الحياة بعيداً ، فأصبحت المكالمات شبه شهرية ، وأحياناً كان يتصل بهم من بلاد أخرى فى أقاصى المعمورة ليؤكد لهم الدوامة التى لا يستطيع أن يخرج نفسه منها ، ويبدو أن حياته قد امتلأت بالنجاح والتفوق بحيث لم يعد فيها مكان أو ثغرة لأى إحساس آخر .

وسرعان ما لحقت الابنة بأخيها ، ولكن بأسلوب آخر .

تخرجت فى كلية البنات قسم اللغة الإنجليزية ، ونظراً لأنها رأت فى أخيها الأكبر المثل الأعلى للنجاح والتفوق بل والثروة ، كانت تغبطه على السيارات الفارهة التى يرسل صورها إليها بعد أن يشتريها ، لكنه سرعان ما كان يغيرها كما يغير أحذيته ، فى حين أن أباها لايزال يركب السيارة الصغيرة التى اشتراها قبل أن تولد هى بأكثر من عام ، وعندما زارهم أخوها الأكبر ضمن زياراته النادرة لمصر اقترح عليهم ساخراً تصديرها إلى أمريكا لتعرض هناك فى المتحف ويجنوا منها ثروة طائلة .

لم تكن متفوقة كأخيها ؛ لكن الثروة كانت حلمها الأثير ، عملت مدرسة للغة الإنجليزية فى مدرسة خاصة بالمعادى ،

حصلت على مرتب أكبر من ذلك الذى حصلت عليه زميلاتها فى المدارس الحكومية ، لكنها ظلت ناقمة وصور الرفاهية التى يرفل فيها أخوها لا تبارح مُخَيلتها ، كانت شرطها فى كل عريس يتقدم لها أن يكون ثرياً ، وسدت أذنها فى وجه نصائح الأب والأم التى دارت حول الحب والتعاون والتوافق وغير ذلك من القيم الإنسانية التى تَجُب كل ثروات العالم .

وعندما لم يتقدم من يملأ عينها ، أسرعت بطلب الإعارة للسعودية ، ولم تتردد لحظة واحدة فى السفر عندما قبلت إعارتها لتعمل فى إحدى مدارس الرياض ، وعلى متن الطائرة تعرفت بطبيب مصرى يعمل بالرياض منذ ربع قرن ويشرف على مركز طبى للعلاج الطبيعى ، وتوطدت أواصر الصداقة بينهما برغم فارق السن الذى يقترب من العشرين عاماً ، وبرغم فشله فى زيجتين سابقتين .

وبرغم معارضة أبيها وأمها عندما تقدم لطلب يدها ، قبلته وفرضته عليهما ، فقد كان رصيده فى بنوك مصر والسعودية وسويسرا أقوى من أن يُقَاوَم ، كانت واثقة من نفسها تماماً وهى تتصرف بقوة ، بل وكانت واثقة منه برغم أنه لم ينجب من زوجتيه السابقتين ، وبالفعل تم الزواج وتحقق حلمها الأكبر .

وأثبتت أن كل مخاوف أبويها لم تكن سوى أوهام ؛ فقد أنجبت ولداً وبنتاً ، وتضاعفت الثروة وتدفق المال بين أيديهما .

كانت في البداية تحرص على قضاء أجازة الصيف مع أبويها سواء في القاهرة أو الإسكندرية ، لكن حلمها الأثير الذي أغراها بمشاهدة الدنيا والاستمتاع بها ظل يلح عليها كلما عبرت أطياف أخيها بمخيلتها ، ومع جريان المال انتقلت لقضاء أجازة الصيف بين ربوع أوروبا ، وجبال الألب ، ومغاني الريڤيرا ، والأندية الليلية التي تقدم ما لم تره عين من قبل . وذات صيف قررت زيارة أخيها في أمريكا . ذهبت إليه بخليط من مشاعر الفخر بنجاحها مثله ولواعج الأخوة القديمة القابعة في أعماق النفس ، لكنها فوجئت به وكأنه شخص آخر ، كان مهذباً ورقيقاً للغاية ، لكنه كان متحفظاً ومشغولاً للغاية أيضاً ! اقترح عليهم انتهاز الفرصة وزيارة كل المعالم التي يقبل عليها السياح مثل مدينة والت ديزني وستديوهات يونيفرسال ومسارح برودواي وغيرها .

وكأنها لم تأت لزيارته بعد فراق طويل ، وإنما أتت كسائحة فقط ! .

لكن نظرتها المادية والعملية للحياة لم تكن تسمح لها بأية صدمة عاطفية ، انتهزت الفرصة - بالفعل - وجابت

الولايات طولاً وعرضاً ، وفى نهاية الزيارة اتصلت بأخيها تليفونيًا لتشكره على نصيحته هذه ؛ لأنها لو كانت مكثت معه فى كليفلاند لما وقعت عيناها هى وأسرتها على كل هذه المباهج . فتمنى أخوها لها حظًا سعيدًا وطلب منها أن ترسل تحياته وتمنياته القلبية إلى أبيه وأمه وأخيه الأصغر (رفيق) .

كان الأب يتابع كل هذه التحولات معزيًا نفسه ، بقوله : إنها سنة الحياة ، ولكل جيل مشاغله وقضاياه وتقاليده وعاداته .

وتعلق أمله فى الحياة برفيقة عمره الوفية الرقيقة ، وابنه الأصغر (رفيق) الذى فطره الله على كل المشاعر الفوّارة والأحاسيس الجياشة والعواطف الحارة التى جفّت فى قلب ابنه الأكبر وابنته الوحيدة ، كانت زوجته وابنه الأصغر عزاءه الوحيد الذى تشبّث بتلابيبه ، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ، أصاب الوهن قلب رفيقة العمر ، وعجزت الشرايين عن ضخ الدم ليسرى بالحياة فى الجسد الشاحب والنفَس اللاهث.

هنا أدرك الحكمة من وجود ابنه الأكبر على رأس مركز من أهم مراكز جراحة القلب فى الولايات المتحدة ، اتصل به

وأخبره برأى الأطباء المصريين الذين أصروا على إجراء العملية فى الخارج ، وكم كانت سعادة الأب عندما وجد ابنه يقرر كل الخطوات الإجرائية فى نفس المكالمة التليفونية ، تذاكر السفر التى سيرسلها إليهم وحجز غرفة العمليات ، وغير ذلك خطوة خطوة حتى العودة إلى مصر .

وعلى متن الطائرة المنطلقة إلى نيويورك ثم كليفلاند جلس الأب إلى جوار زوجته وخلفه ابنه (رفيق) الذى كاد أن يقتل نفسه لهفةً على أمه ، كان الأب غاية فى الاطمئنان والثقة فى مواجهة التساؤل الذى ألحّ على وجدانه :

– ماذا كان يمكن أن يكون مصير زوجته لو لم يكن ابنه من كبار جراحى القلب فى الولايات المتحدة الأمريكية ؟! كم تضايق من سفر ابنه وهجره لهم فيما يشبه القطيعة النهائية ؟! لكن ها هى الأيام تثبت أن لكل شئ حكمة ، وأن قصر نظر الإنسان يجعله فى أحيان كثيرة لا يرى أبعد من موطئ قدميه فى حدود اللحظة الراهنة التى يعيشها !! .

وهناك فى المستشفى تضاعفت سعادة الأب عندما وجد المكانة الأثيرة التى يحتلها ابنه بين الأطباء الأمريكيين ، وغبط زوجته على إنجابها لهذا العبقرى الذى

سيعيد إليها شباب قلبها وخضرته اليانعة . لم يكن قلقًا برغم خطورة العملية ، كان كل شئ حوله يوحى بأن الجميع أطباء ومساعدين وحكيمات وممرضات ، يعلمون - بالضبط - ما هم مقدمون عليه ، ويدركون على وجه اليقين النتيجة التى سيصلون إليها ، فنام ملء جفونه ليلة العملية ، وهو الذى لم يغمض له جفن ليلة إجراء عملية المصران الأعور لابنه (رفيق) .

كان يوم العملية يومًا مشهوداً ، الإجراءات الدقيقة كالساعة ، الابتسامات الحانية من فريق الأطباء الداخلين إلى الغرفة ، الممرات البراقة كالمرايا ، كل الأشياء تنبئ بنجاح باهر .

انشغل الأب بتصفح جريدة لعله يجد فيها أخباراً عن مصر ، فى حين حاول (رفيق) أن يبتلع قلقه وأن يركز نظراته الزائغة على مجلة مصورة لكنه لم يسترح لمناظر الأجساد شبه العارية أو العارية فيها ، فألقى بها جانباً، وتسلل ببصره عبر زجاج النافذة إلى السماء حيث بدا فى صلاة صامتة ، لم يجد الأب تفسيراً لقلق ابنه سوى أنه قلق بطبيعته منذ أن وعى هذه الدنيا .

استمرت العملية أكثر من ست ساعات ، فلم يستطع الأب أن يقاوم القلق بدوره ، ليس لطول زمن العملية ، ولكن لأن الوجوه الداخلة والخارجة لم تكن مريحة ؛ فقد تلاشت الابتسامات ، وأسرعت الخطوات ، وكثرت مرات فتح الباب الزجاجى وغلقه دون إجابة شافية سوى :

– ليس بعد .. العملية لم تنته بعد ..

نهض (رفيق) ليتسلّل ببصره عبر الباب لعله يرى شيئاً لكنه لم يلمح سوى قاعة فسيحة بيضاء لامعة تحت كشافات ساطعة من السقف ، وعيناه لم تقعا على أمه الحبيبة أو حتى الأطباء المحيطين بها ، تذكر الأب الإقرار الذى وقعته زوجته عن قبولها لإجراء العملية فاعتراه التشاؤم لكنه عاد ليطمئن نفسه بأن هذا هو النظام المتبع فى مستشفيات الخارج حتى لو كان الأمر متصلاً باستئصال اللوز ، ومع ذلك لم يستطع الهرب من السؤال أو التساؤل الذى طارده حول عدم قيام ابنه بالعملية .. فلم تخرج إجابة ابنه عن :

– هذا نظام دقيق يقوم فيه كل زميل من الزملاء بدوره على خير وجه ، وكلهم يمتازون بنفس الكفاءة والقدرة ، فلا محل للقلق على الإطلاق ، كما أن المستشفى مجهز بأحدث

الأجهزة التكنولوچية تجعل أخطر العمليات مجرد « روتين يومى » ! .

لكن الإجابة لم تكن شافية إلى حد ما ، ثم إلى حد كبير ، ثم لم تعد شافية على الإطلاق مع هذه الوجوه البيضاء المُتجهمة التى لا تبنئ بشئ بل تثير الآن أسوأ المخاوف . إن أحدث الأجهزة التكنولوچية لا تمنع القدر من الوقوع ؛ هو الآن يفكر فى القدر بعد أن كان قد نسيه منذ وطئت قدماه أرض الولايات المتحدة الأمريكية ! .

قرر أن يواجه أول وجه خارج من الغرفة المخيفة ، فقد رأى فى الأفلام الأمريكية كيف يصرخ أهل المريض فى وجه الطبيب الذى لا يملك سوى أن يجيبهم بمنتهى الرقة والعذوبة برغم فجاجتهم التى تصل إلى حد الصفاقة ، وبالفعل اعترض أول وجه خرج من الباب ، وسأله :

– من حقى أن أعرف ماذا يجرى لزوجتى داخل هذه الغرفة ! .

– لو كنت طبيباً لشرحت لك ! لكن ليس أمامك الآن سوى الانتظار حتى انتهاء العملية ! فربما أسأت فهم ما سأقوله لك !! .

– الموضوع ليس بحثًا علميًا حول حالة مرضية معينة إنه حياة زوجتى ومستقبل أسرتى كلها !! .

– كل شئ سيكون على ما يرام .. عن إذنك !! ..

وعرف الوجه الأبيض الكالح كيف يتملّص منه ، فغامت الدنيا فى عينيه وهرع للاتصال بابنه فأخبروه أنه فى كندا للاشتراك فى ندوة عن زراعة القلب واستبداله وسيعود فى اليوم التالى فى الساعة الواحدة والثلث بعد الظهر !! ..

حاول التماسك عندما وجد ابنه (رفيق) يتبعه كظله فى كل خطوة يخطوها ، وقد تحول إلى ريشة فى مهب الريح . ربت على كتفه واحتواه ؛ ليعود به إلى الاستراحة الكئيبة وقلبه فى اتصال صامت مع السماء، لكن سرعان ما حسم الأمر بدخول أحد الأطباء الاستراحة ليسأله مباشرة :

أنت زوجها .. أليس كذلك ؟! .

قفز من جلسته كمن لدغته عقرب وفى أعقابه ابنه (رفيق). أجابه بضراعة تحاول استخراج الكلمات المطمئنة من بين شفتيه :

– نعم .. أنا هو .. خيراً ؟!

– كانت العملية فى منتهى النجاح .. كنا سعداء للغاية حتى الساعة الأخيرة عندما واجهتنا بعض التعقيدات .. لكن التعقيدات سرعان ما تحولت إلى مضاعفات حاولنا قهرها

بقدر الإمكان لكننا فشلنا . حاولنا تشغيل القلب مراراً لكن الوقت كان قد فات .. ولذلك بالنيابة عن زملائى أبلغك بالغ أسفنا .. عن إذنك !! .

واستدار ليختفى وقد شعر الزوج أنه يرزح تحت وطأة كابوس يتمنى أن يستيقظ منه ، لكن لا فائدة !!.

تسلل إلى أذنيه المسدودتين بطنين الرعب نحيب مكتوم فتذكر أن ابنه (رفيق) يجلس إلى جواره فاحتضنه وظلاً يبكيان سوياً إلى أن خرجت عربة العمليات ، فسارا خلفها دون أن يحاول أحد أن يسندهما حتى لا يقعا تحت وطأة الانهيار المتجسد فى كل حركة شاردة من حركاتهما .

وعاد الابن الأكبر معهم ليحضر وداع أمه ، وكذلك جاءت الابنة الوحيدة من السعودية ، وكأنهما فى مهمة رسمية لتلقّى واجبات العزاء التى سافرا بعدها بمجرد انتهائها ليخلو البيت على الأب وابنه الأصغر (رفيق) ، ويصبح كهفاً للذكريات وبئرًا للوحشة وصدى الصمت والسكون الرهيب .

انهمك الأب فى عمله حتى يدفن فيه أحزانه ؛ لكن شبح العزلة والوحشة طارده ، فلم يبق أمامه سوى عشرة أشهر لكى يحال إلى المعاش ، كان يفكر فى تأسيس مشروع ليمارس فيه

العمل الحر بعد أربعين سنة من خدمة الحكومة ، فقد تخرج فى كلية التجارة ولم يتجاوز العشرين من عمره ؛ لكن بعد رحيل العزيزة لم تعد لديه أية رغبة فى ممارسة العمل الحر الذى يحتاج إلى روح معنوية عالية لم يعد يحلم بها .

لكن ، ماذا يفعل ولم يتبق على تخرج ابنه فى كلية الهندسة سوى سنة ونصف؟ أليس من المحتمل أن يعثر على وظيفة بعيداً عن القاهرة ؟! كما أن حياته لن ترتبط به إلى الأبد !! .

فهو فى النهاية لا بد أن تكون له حياته الخاصة المستقلة برغم ارتباطه العاطفى العميق به !! هل يمكن أن يتزوج مرة أخرى وهو الذى لا يستطيع أن يتصور أن تحلّ أية امرأة - مهما كانت - محل العزيزة الراحلة ؟! .

اللعنة على كل هذه الأسئلة المحماة كسنون الرماح دون درع يتّقى طعناتها ، وكأن الكون كله تحول إلى أسئلة بلا إجابات ! ولم يكن (رفيق) بعيداً عما يدور داخل أبيه برغم انهماكه فى دراسته ،كان يلمح له من حين لآخر أنه لن يقبل إلا وظيفة فى القاهرة عندما يتخرج ، وأنه سيتزوج ليعيش معه ويملأ بيته بأطفال يثيرون فيه الضجيج ليل نهار ؛ وبذلك يضرب عصفورين بحجر واحد ، يعيش معه ويتمتع بصحبته

وفى الوقت نفسه يوفر تكاليف شراء شقة وتأثيثها ، وهى تكاليف أصبحت خيالية ، ويمكن أن تشكل عقبة مالية عند انطلاقه فى مطلع حياته العملية.

لكن التجربة المريرة التى مرّا بها سويًا علمتهما أن البشر يقدرون فى حين تضحك الأقدار ! فالإنسان لا يعرف ماذا سيجرى له بعد ثانية واحدة من الزمان !! ولذلك كان إحساس (رفيق) قاتلاً عندما يتصور أباه شيخاً محطماً قابعاً فى عقر داره لا يجد من يقدم له شربة ماء .. طاردته هذه الصورة فى صحوه ومنامه ، وامتزجت فى الوقت نفسه بصورة (طنط زهيرة) جارتهم وصديقة أمه التى اشتملتهما برعايتها منذ عودتهما من تلك الرحلة المشئومة ، ساعدتهما فى أمور الطهى ، ودفعت لهما فواتير الكهرباء والماء عندما يأتى المحصل فى غيبتهما ، وكانت دائمة السؤال عنهما سواء بالتليفون أو بالطرق على بابهما ؛ إذ كانت تقطن فى الشقة المقابلة .

وكان أبوه فى منتهى الحرج والخجل منها فى البداية ، لكنه ارتاح لتواجدها العابر فى حياتهما وإصرارها على رعايتهما ولو عن بعد ، فى حين لم تمكث أخته سوى أسبوع

تقبلت فيه العزاء وعادت مسرعة إلى زوجها ، لكن الوضع لا يمكن أن يستمر على ما هو عليه ، فهى سيدة مطلقة ولم تنجب أطفالاً ، وتصغر أمه بحوالى عشر سنوات ولا تزال جميلة ومرغوبة فى حين أن أباه الذى يقترب من الستين يبدوكمن لم يبلغ الخمسين بعد ، فلا يزال يحتفظ بنشاطه وحيويته وقدرته المتواصلة على العمل ، فهل يمكن أن تكون (طنط زهيرة) هدية القدر لأبيه فى شيخوخته ؟! فإذا كانت ترعاه بهذا الشكل الحميم وهما مجرد جيران ، فماذا يمكن أن تفعل لو أصبحت عضواً فى أسرتهما الصغيرة ؟! ولذلك قرر (رفيق) أن يفتح الموضوع مع أبيه على مائدة العشاء وكأنه يريد أن يخلّص ضميره من عبء يعانى من وطأته . قال :

– لم أكن أعرف أن (طنط زهيرة) بهذه الأصالة والرقة والرغبة الحميمة فى خدمة الناس دون أن يطلبوا منها ذلك !

حاول الأب أن يقرأ عينى ابنه فلم يستطع ، قال وهو يشرب بقايا كوب الماء :

– إنها سيدة عظيمة ولا شك ..

– أنا لا أنسى الليلة التى قضتها إلى جوار فراش ماما عندما فاجأتها الأزمة القلبية !! .

– كذلك لا أنسى ابتعادها عنا بعد طلاقها حتى لا تثير القيل والقال ، مما دفع بالمرحومة إلى زيارتها فى شقتها ! .

حاول (رفيق) أن يجس نبض أبيه فى محاولة لاستخدام المكر لأول مرة فى حياته :

– لكن طلاقها كان غامضًا للغاية .. ولم يعرف أحد سببه الحقيقى على وجه التحديد !!.

– الناس مغرمون بدس أنوفهم فى شئون الآخرين .. ولذلك كانت فى منتهى الحكمة والوقار عندما لم يزد تعليقها على أن كل شيء قسمة ونصيب ! .

– قالوا : إن زوجها طلقها وهرب منها ؛ لأنها امرأة لا تعاشر ! .

– كلام الناس كثير يا ابنى ! .

– فعلاً .. ما قدمته لنا من خدمات يتنافى تماما مع ما قيل عنها ! ولذلك فأنا مستريح لها تماماً ! .

حاول الأب هذه المرة قراءة ما يدور فى عقل ابنه ، فقال :

– لكن لابد أن نبحث عمن يمكن أن يساعدنا فى إدارة شئون المنزل .. فهذا الوضع لا يمكن أن يستمر .. وإلا قال

عنها الجيران أسوأ مما قالوا فى طلاقها .. وأنا لا أرضى بذلك !! .

– أم إبراهيم التى كانت تساعد ماما فى التنظيف والترتيب لم تعد فى سن تساعدها على مواصلة العمل .. لكن المخاوف كثيرة هذه الأيام من الشغالات الشابات بالإضافة إلى أجورهن المرتفعة !! .

– الحال ميسورة والحمد لله .. نستطيع أن ندفع مثل هذا الأجر .. لكننى خائف – فعلاً – سواء من القيل والقال أو من غياب عنصر الأمانة .. لأننا سنترك لها الشقة سويا عدة ساعات كل يوم !! .

تردد (رفيق) بعض الشئ ثم تساءل فى حرج :

– لكن يبدو أن موضوع زواج حضرتك مرة أخرى غير مطروح للتفكير أو حتى للمناقشة ؟! .

– وما الذى جعلك تفكر مثل هذا التفكير يا (رفيق) ؟! .

هل تعتقد أنه يوجد على وجه هذه الأرض من يمكن أن تحل مكان ماما ؟! تحول تردده إلى تلعثم :

– لا . طبعاً !! مجرد تساؤل عابر ! .

ولم يتطور الحوار بعد ذلك ! لكن الأحداث والمواقف تطورت ! فرضت (زهيرة) ظلها على البيت حتى أصبحت جزءاً حيوياً منه ! ولم يخف الأب فرحته بتواجدها السريع العابر ، وكانت سيرتها الحديث المفضّل مع ابنه الذى ساعدته فى نقل بعض محاضراته ، وأغدقت عليه من الحنان ما لم يكن يحلم به ، فهى فى النهاية مجرد جارة وليست أمه ! .

لكنها فجأة أعلنت عدم قدرتها على التواصل الحميم بعد أن سمعت البواب خلسةً وهو يقول لزوجته : إن كل سكان العمارة قد اتخذوا من سيرتها حديثهم المفضل الذى أوشك على تلويث سمعتها وشرفها ؛ ولذلك قررت أن تغلق على نفسها بابها منعاً للقيل والقال ، فالمجتمع مغرم بالبحث الدائم عن ضحايا له كى يتسلى بهم وهى لن تكون هذه الضحية .

وكانت صدمة غيرت مجرى الأحداث ؛ بل إنهما شعرا بعقدة ذنب جعلتهما يفكران جدياً فى قطع كل ألسنة السوء ، ودخلا فى دوامة من الحيرة والقلق والإحساس القاتل بالذنب ، ولم يخرجا منها إلا بفكرة عرض الزواج عليها ، فكرة ومضت كالبرق فى الليلة الظلماء ، ورحب (رفيق) بالفكرة ؛ بل عرض القيام بمهمة جس النبض منعاً للإحراج فى حالة الرفض .

وكان الأمر فى البداية مزيجاً من المفاجأة والدهشة والاستنكار والتمنع والحرج والخجل والتهيب ؛ لكنه سرعان

ما انقلب إلى طلب مهلة للتفكير ، ثم موافقة مترددة ، ثم حماس متدفق لخدمة أسرة الصديقة الغالية ! وتم الزواج بلا أى ضجيج وانتقلت (زهيرة) إلى الشقة لتعيش فيها ملكة متوجة .. وسرعان ما أصبح الأب مجنوناً بها كما لو كانت تملك سحراً لا يقاوم ! انشغل بها الأب كما لو كان فتى سعيداً بشهر العسل فى مطلع حياته ، صحيح أنه لم يقصر فى أداء واجباته والتزاماته تجاه ابنه ؛ لكن ابنه لم يعد محور تفكيره ، ومع ذلك سعد الابن لسعادة أبيه ، فهو على الأقل لم يعد يحمل همه .

لكن لا توجد سعادة فى هذه الدنيا لا تجد ما يعكر صفوها . كانت (زهيرة) مغرمة بالتبرج داخل بيتها والكشف عن محاسنها ليس فى غرفة النوم فحسب ؛ بل فى الشقة بأكملها ، وعندما لفت زوجها نظرها إلى ذلك حتى لا تتسبب فى أى إحراج لرفيق قالت له فى دلال لم يعد يحتمله :

– رفيق ابنى مثل ما هو ابنك تماماً !! ولا يوجد الابن الذى ينظر إلى أمه نظرة غير مرغوبة !! كما أننى إذا لم أمارس حريتى فى بيتى فأين أمارسها ؟! خصوصاً فى لهيب الصيف !! .

فعلق بحرج واضح :

– ما رأيك فى أن يعيش (رفيق) فى شقتك المغلقة حتى تتمتعى بمطلق حريتك ؟! .

أجابت بنبرة عملية للغاية :

– لقد أجرتها مفروشة من أول الشهر القادم ! فلا يصح أن أعيش عالة عليك فى كل شئ !!

– أستغفر الله العظيم .. فالحال ميسورة والحمد لله .. وأنا على استعداد أن أدفع لك إيجار الشقة مفروشة !!

– إذا كان حبيبك عسلاً فلا تلحسه كله !! .

– ولولا أن المستأجرين جاثمون على أرضنا بالمنوفية كالكابوس .. لكنت قمت ببيعها وأصبحنا فى عداد المليونيرات !!

– كلمة « لولا » ليست فى قاموسى .. أنا بنت اليوم !!

وكان الزوج ينهى الحوار دائماً بابتسامة حرجة يغطيها بدعابة تدعى الخفة و المرح ؛ لكنها تعنى حقيقة راسخة كالجبل ، كان يقول :

– أمرك يا مستبدة !!

ولم يستطع (رفيق) أن يخفى ذهوله ! كان يظن أن الشباب عذره فى أن يلهث وراء المرأة التى تشبع أو تطفئ لهيب النيران المتأججة داخله ، ولذلك فهو على استعداد ليجعل من أصابعه العشرة شموعاً مضيئة لها فى ليل الرغبة العارمة أو فى نهار السعى للحصول على ودها الحميم ! لكن ما حجة كهل على مشارف الستين كى يرتمى عند أقدام امرأة متوسطة الجمال وتجاوزت منتصف العمر ؟! هل هى الرغبة العارمة التى تلتحف بأردية الحكمة والوقار والرزانة ؟! لقد أصبح أبوه فى أصبعها كالخاتم ، كان بمجرد النظر إلى عينيها يصير كالمنوم مغناطيسياً ، وذات ليلة جفاه فيها النوم سمعه يقول لها بصوت مبحوح ومسموع : إنه قد أدمن فيها كل شئ : اللون والطعم والرائحة !! حاول أن يسد أذنيه ، بضغط الوسادة لكن الصوت طارده !!.

لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد! تفننت (زهيرة) فى التعطر والتجمل وارتداء الملابس الشفافة التى تفضح أكثر مما تستر ، كلما كان (رفيق) بمفرده فى البيت ، ففى فورة الشباب الطارئة أقنعت أباه بالبدء فى تنفيذ مشروعه الخاص حتى يكون جاهزاً بمجرد خروجه إلى المعاش ، فلا يشعر بفراغ أو اكتئاب نفسى .

وشرع الأب على الفور فى اتخاذ إجراءات تأسيس مكتب المحاسبة وشراء أجهزة الكمبيوتر ، وتركيب التليفون والفاكس وغير ذلك من العمليات التى كانت تستغرق معظم فترة المساء ، وتطيل من فترات غيابه عن المنزل .

أغلق (رفيق) غرفته وألصق عينيه ويديه بلوحة الرسم ليضع خطوط مشروع البكالوريوس ، فكانت تفتح الباب برقة وهدوء وتقدم كوباً من الشاى الساخن الّذى لم يطلبه ، وتظل قابعة خلفه تفوح بعطرها وهى تدعى متابعة ما يخطّ على اللوحة ، وعندما تكررت هذه المحاولات التى أصابته بالرعب والاشمئزاز التفت خلفه ذات مرة ، وقال لها دون أن ينظر إليها :

– بابا يحب أن يأخذ رأيك فى كل شئ .. فلماذا لا تشاركيه فى التجهيز لمشروعه الجديد ؟! .

وإذا بها تتحول إلى نمر مفترس !! صاحت بكلمات كأنها طلقات موجّهة إلى الجيران عبر النافذة :

– صحيح .. آخر خدمة الغز علقة !! هل هذا جزائى فى النهاية !! . تريد أن تطردنى من البيت !! عندما يأتى أبوك سأقص عليه كل شئ !!

وانهارت على المقعد خلفى لتبكى وتولْوِل، فما كان منه سوى أن استدار لينكبّ عليها دون أن يلمسها وهو يتوسل إليها :

– أرجوك .. ماذا سيقول الجيران ؟! لم أقصد هذا على الإطلاق !! آسف .. آسف .. اعتبرينى لم أقل شيئاً !! كان كل قصدى أن تطردى الملل بالخروج مع بابا !! .

سكنت وهى تسلط عليه نظرتها المغناطيسية ، أرخى عينيه فاصطدمتا بفخديها النافرين تحت الغلالة الوردية الشفافة القصيرة ، فابتسمت من تحت رموشها وكأنها تسأله :

– ما رأيك ؟!

انتفض واقفاً وارتمى على مقعد الرسم العالى وارتكز بمرفقيه على اللوحة وبدا كما لو كان يبكى بين راحتيه اللتين احتوتا رأسه ووجهه ، نهضت لتلصق نهديها المدببين بظهره وهى تربت على كتفيه ؛ لكنه لم يتحمل لهيب الالتصاق فخرج من باب الغرفة كالسهم الذى انطلق على سلم العمارة إلى الشارع لا ينوى على شىء ، والبواب يتابعه بعينين متسائلتين فى تعجب ، فحتى السلام لم يعد يلقيه عليه عند خروجه !! .

وتوالت المواجهات التى تحوّلت إلى صراعات ، والأب فى دوامة من الحيرة بينهما لا يعرف سر هذا التحول المرعب ، إذ حرص كل منهما على التذرع بأسباب ملفقة فى محاولة مستميتة منه للابتعاد عن المصارحة ، وقد تذرّع (رفيق) لأول مرة فى حياته بضرورة المذاكرة مع زملائه لتبادل الرأى والمشورة ؛ لكن حادثة سرقة وقعت لسكان الدور الأرضى ، جعلت أباه يصر على تواجده فى البيت فى أثناء غيابه ، وإذا كانت هناك ضرورة للاستذكار مع زملائه ، فليحضر أحدهم أو كلهم إلى البيت الذى يتسع لهم كلهم ، فليس من اللائق أن يثقل عليهم دون أن يدعوهم للترحيب بهم فى بيته ، وعندما حاول (رفيق) أن يقنع أباه بأن العمارة أصبحت أكثر أمنًا لتردد المخبرين السريين حولها بعد حادث السرقة ، حسم أبوه الموضوع بأن زهيرة تهوى التزين بالمجوهرات مما يشكل إغراء قويًا للصوص !! .

وكان (رفيق) على وشك أن يقول له : ولماذا لا تقتصد فى التزين بالمجوهرات ؟ لكنه أدرك فى الحال أن كلمتها هى النافذة ، وعليه أن يرضخ لسطوتها! وأوشكت أن تحرقه لسعة الندم التى تصيبه كلما تذكر أنه كان العامل

الأساسى فى تشجيع أبيه على هذه الزيجة التى أوشكت به على الرسوب فى سنة البكالوريوس ، وهو الذى لم يعرف التخلف الدراسى طيلة حياته العلمية .

لم تيأس (زهيرة) ! كانت كمروّض الدببة ، تؤمن بصعوبة مهمتها ؛ لكنها - فى الوقت نفسه - كانت على يقين بأن الدب إذا تم ترويضه ، فإنه لا يمكن أن ينسى ما تعلمه !

ومع ذلك أثبت رفيق أنه ليس دبًا على الإطلاق ، بل هو ابن بار بأبيه وسيحافظ على شرفه حتى النهاية مهما كان الثمن !! .

وذات ليلة ظل يتقلب فى فراشه بعد أن أصبح النوم مطلبًا عسيرًا فى معظم الليالى حتى مطلع الفجر . فى السكون المطبق تناهى إلى سمعه حوار خافت التقط منه ما يهمه عندما قالت (زهيرة) لأبيه :

- لابد أن تختار بينى وبين (رفيق) ؟! .

- آه لو كنت أعرف ما الذى جعل الأمور تصل إلى هذا الحد الغريب ؟! .

- أنت تعرف أننى أمقت القيل والقال وتلويث السمعة ؟!

– هل صدر منه ما يسئ إليك ؟! .

– لم يحدث ؟! .

– أنسيت أنك كنت دائماً أمًا له ؟! .

– لكن الواقع والمجتمع يقولان : إننى لست أمه !! .

– لم يبق على تخرجه سوى شهور معدودة .. بعدها يمكن أن يسافر أو يعمل بعيداً ويخلو لك البيت تماماً !! . إننى أدرى بأخلاقيات (رفيق) !! إنه أحب أبنائى إلى قلبى ولا يمكن أن أشتت تفكيره فى سنة حاسمة مثل هذه فى حياته !! لن أغفر ذلك لنفسى أبداً !! .

وخفت الحوار وضعفت نبراته إلى أن تحول إلى همس ؛ لكن الضجيج الصاخب الذى أصاب أذنيه بالصمت ، وأسال الدموع من عينيه على وسادته جعله يعقد العزم على تلقينها درساً لا تنساه ! إنها مهما كانت فهى امرأة مطلقة تجاوزت منتصف العمر ، أنقذها أبوه من الوحدة والغزلة ، ويمكن أن يطلقها أيضاً ؛ لكنه سيظل ابناً من صلبه إلى الأبد مهما أتت الأقدار بالعجيب والمذهل من تقلباتها !! .

استيقظ الأب فى ذلك الصباح الثقيل ، وقد قرر أن يجمع بين ابنه وزوجته لتصفية الجو من غيوم هم فى غنًى

عنها ، وخاصة أن المشكلة تبدو وهمية إلى حد كبير ، وربما كانت عقدةُ زوجة الأب التقليدية الشائعة هى التى ألقت بظلالها عليهما برغم أنها لم تبدأ بهذا المنظور على الإطلاق ! .

وجد الأب غرفة ابنه مفتوحةً ، دخل ليجد الفراش شاغراً ، نادى عليه لكن لا حياة لمن تنادى ، هرعت (زهيرة) لتؤكد له أنه نام ليلته كالمعتاد فى فراشه ولم يبد عليه أى شيء غير عادى ، جرى الأب كالمجنون بين الحمام والصالون والشرفة ينادى عليه ؛ لكنه كان قد تلاشى كالحلم ، عاد إلى غرفته ليفتش فى حاجياته فاكتشف اختفاء حقيبة الرحلات وعدته الهندسية وبعض كتبه ، أحصى ملابسه المنزلية فى الدولاب فوجدها ناقصة ، التقط أنفاسه وهو يرتمى على أقرب مقعد :

– لعلك تكونين سعيدة الآن .. لقد أراحك من تلقاء نفسه !! .

لوت (زهيرة) شفتها السفلى واستدارت عائدة إلى غرفتها وهى تتمتم :

– لم أطرده !! إنه بيت أبيه !! أما أنا فمجرد دخيلة !

لم يعبأ بما قالت ، ارتدى ملابسه فى الحال ليقضى يوماً من أسوأ أيام حياته ! لم يكن يعرف شيئاً عن زملائه الذين

ذهب للاستذكار معهم ! بدأ رحلة البحث الحزين بالذهاب إلى كلية الهندسة لعله يلمحه بين طلبة قسم مدني! لفت أنظار الطلبة بنظراته الزائغة الشاردة لكنه واصل التساؤل بطريقة آلية بصفته خاله الذى يريده فى مهمة ضرورية لا تحتمل الانتظار ، وعندما تأكد من أن أحداً من زملائه لم يره فى الكلية فى ذلك اليوم ، سأل عن عناوين الذين اعتاد الاستذكار معهم ، وكانت الضربة القاضية أنه سأل الزميل الذى كان يسهر معه والذى قال له : إنه توقف عن الاستذكار معه ولم يعد يراه سوى بطريقة عابرة فى الكلية ، فقد بدا عليه الشرود والاكتئاب فى الشهور الأخيرة وفقد الرغبة فى التواصل الحميم مع زملائه .

أكمل الأب يومه الحزين فى البحث عن ابنه عند الأقارب وأقارب الأقارب ، الأصدقاء وأصدقاء الأصدقاء ؛ لكنه عاد فى المساء إلى بيته كسير النفس ، محطم الفؤاد ، تجتاحه أعاصير مشابهة لتلك التى اقتلعته من جذوره يوم رحيل رفيقة عمره فى ذلك المستشفى الكئيب فى كليفلاند .

لكن المصائب لا تأتى فرادى ! أخرج مفتاح شقته ليفتح الباب ، فإذا بالباب مفتوح ، جرت به قدماه إلى الداخل فإذا بالكابوس الذى استيقظ عليه فى الصباح قد تحول إلى جحيم

مستعر فى المساء ، كانت (زهيرة) ملقاة على فراشها فى قميص نومها وسط بركة لزجة من الدماء القانية .

صرخ صرخة مدوية سقط بعدها وقد غاص فى قاع الغيبوبة التى صعد إلى سطحها ليتلمس ما حوله فوجد الجيران يحيطون به من كل جانب بعيون ذاهلة تنطلق منها السهام المحماة لتغوص فى كل خلاياه ، وألسنة تختلط بالأصوات لتؤكد أن الابن هو القاتل ، فقد كانا على خلاف وصراع دائمين ، كانت تشكو لجاراتها المعاملة القاسية التى لاقتها على يديه ، وجحوده الناكر لأفضالها عليه برغم كل رعايتها له وسهرها على راحته لتعوضه فقدانه لأمه . كانت أمًا ثانية له ؛ ومع ذلك قطع اليد التى امتدت إليه بالحب والحنان والمودة والصفاء .

لم يدر الأب إلا وهو ينهض قائلاً بصوت قادم من غياهب الجب :

– سأذهب لإبلاغ الشرطة ..

وأسرع معه اثنان من الجيران ذهلا من اعترافاته أمام الشرطة عندما أكد أنه القاتل . قتلها بالسكين التى وجدوها ملطخة بالدماء إلى جوار جثتها ، قتلها ليغسل بدمائها عاره عندما فاجأها مع عشيقها الذى هرب فى غمضة عين ، كان

كل اعتقاد الأب أن ابنه عاد إلى المنزل فى غيبته لينتقم منها ، وخاصة أنه لم يجده فى كليته ولم يره أحد من زملائه فى ذلك اليوم ، فى حين أجمع الجيران على أنه القاتل ، لدرجة أن أحدهم قال فى شهادته أمام الشرطة : إنه لمح قدمين فى حذاء يشبه حذاء (رفيق) اللامع وهما تقفزان على درجات السلم ، أما البواب فقد أنكر أنه يعرف شيئاً عن الموضوع وإن كان قد سمع صوت صرخة مكتومة لم يعرها التفاتاً ! .

أثبتت معاينة الشرطة لشقة القاتل والقتيلة أن المجوهرات والأشياء الثمينة ظلت كما هى ، مما أبعد شبهة الاقتحام للسرقة وخاصة أن المخبرين السريين يراقبون المنطقة بعد حادث سرقة الدور الأرضى فى العمارة ، ولا يعقل أن يكرر اللصوص المحاولة فى نفس المكان فى تلك المدة القصيرة ، كما أكد المخبرون السريون أنهم لم يلحظوا شخصاً مريباً أو مثيراً للشبهات ! .

وإذا كان الاعتراف سيد الأدلة فليست ثمة ضرورة فى مزيد من التحرى والتحقيق ، والقاتل واقف يعترف بكامل إرادته أنه انتقم لشرفه وغسل عاره بدمها ، ولم يتبق له سوى تقديمه للمحاكمة كى ينال جزاءه العادل ، ومع ذلك لم يسترح المحقق لهذا الاعتراف الصحيح الحاسم وكأن القاتل يريد أن

ينهى القضية بأسرع ما يمكن ، بالإضافة إلى أن مقبض السكين التى ضبطت فى الحادث كان خالياً من أية بصمات ، مما قد يشير إلى احتراف المجرم ، فكيف يخفى بصماته بقفاز – مثلاً – ثم يعترف بجريمته بلا أى تردد ؟! ثم إنه ليس من السهل على كهل وقور رقيق مثله أن يقتل امرأة تزوجها لمدة لا تزيد على عام ، فمثله يطلقها ببساطة ويتركها تذهب إلى حال سبيلها !! .

فوجئ الأب بابنه يسرع إليه ويحتضنه وهو يبكى ، لقد قرأ الحادث فى الصحف ولم يصدق أبداً الاتهام الموجه إلى أبيه ، ثم قال للمحقق بحسم أشد غرابة من حسم أبيه :

لا يمكن لأبى أن يرتكب جريمة نكراء مثل هذه !! فإذا كان لا مفر من اكتشاف القاتل .. فها هو يقف أمامكم !! كانت تريد أن تفرق بينى وبين أبى فقررت أن أفرق بينها وبين الحياة ذاتها !! .

صرخ أبوه فى نواح متشنج :

– رفيق .. لا تقل مثل هذا الكلام .. أنا أعرفك مثل كف يدى .. فلست أنت الذى تفعل هذه الفعلة الشنعاء !!

قاطعه ابنه فى صرامة :

– ولست أنت الذى تفعلها أيضاً !! إذاكنت تظن أنك تحاول أن تفدينى .. فكيف تتصور أننى يمكن أن أعيش بعدك وهذا الإحساس بالذنب القاتل يطاردنى ليل نهار !! .

وتراشقا بالحجج كجمرات النار وقد تركهما المحقق لحوارهما ليأخذ مداه لعله يلتقط منه خيطاً جديداً بعد أن تشابكت قنوات التحقيق وأصبح هناك أكثر من معترف بالجريمة ، سأل المحقق الابن :

– وما علاقة إقامتك فى فندق بارتكابك للجريمة ؟ هل كنت تعتقد أنك ستظل هارباً إلى الأبد ؟! إنك هربت من البيت ؛ لأن هناك شيئاً لم تستطع أن تحتمله .. فما هو؟! .

انهار رفيق باكياً منتحباً :

– أنا القاتل !! أنا القاتل !! بابا ليس القاتل !! افرجوا عنه !! .

فى تلك اللحظة دخل أحد الضباط وهمس فى أذن المحقق بكلمات جعلته يقف مشدوهاً للمفاجئة المذهلة . ركز المحقق نظراته على الزوج المتهم بقتل زوجته فى صمت رهيب وفاجأه بسؤال أذهل الموجودين فى غرفة التحقيق :

– لماذا تصر على إلصاق التهمة بنفسك وأنت لست القاتل ؟!

وإذا بالأب دون تفكير ينقض على ابنه ليحتضنه وهو يصيح بصوت منهك ومنتحب :

– لا يا سيادة المحقق .. أنا القاتل ... ابنى برئ .. أنا القاتل !! . أجابه بصوت هادئ رزين :

– لا داعى لمثل هذا الاعتراف المزيف .. لا منك ولا من ابنك .. فابنك أيضاً ليس القاتل !! لا تحاولا تضليل العدالة !!

فإذا بالأب والابن يتساءلان بآلية ذاهلة :

– ومن يكون القاتل ؟! .

أجاب المحقق والارتياح يسرى فى عروقه المشدودة :

– القاتل هو لص خطير سطا على منزلكما بقصد السرقة ، فعندما فاجأته زوجتك قبل أن يشرع فى السرقة وهى تصرخ انهال عليها طعناً بالسكين التى وجدت بجوار الجثة ولم يكن عليها بصمات ، خاف أن تكون صرخاتها قد بلغت آذان بعض سكان العمارة فخرج وأغلق الباب فى هدوء ليتسلل إلى الشارع كأنه واحد منهم .

لقد فضل الهرب والحرية على الذهب والمشنقة ، لكن العناية الإلهية التى لا تغفل ولا تنام أوقعته فى شر أعماله كان

الحذاء اللامع الذى لمحه أحد الجيران هو الخيط الذى قادنا إليه ، لقد اشتهر أحد المسجلين خطر بعشقه للأناقة وبالذات للحذاء اللامع ، أطبق عليه رجل الشرطة فى شقة استأجرها حديثاً ، وكان الدليل المادى فى انتظارهم : بقعة دماء صغيرة على حزام بنطلونه ، وخدوش فى رقبته بفعل أظافر مطلية بالأحمر . ومع مضاهاة نقطة الدم ، وطلاء الأظافر ، وبقايا الدماء فى أظافر القتيلة ، وتضييق الخناق عليه انهار واعترف ، واقتيد إلى مسرح الجريمة ليقوم بتمثيل ما فعله منذ لحظة دخوله الشقة بمفتاح مزيف إلى أن هرب بجلده ، أو ظن أنه هرب بجلده !! .

انهمرت دموع الفرح والأب يحتضن ابنه ، والعيون شاخصة إلى السماء عبر قضبان النافذة ، ونبضات القلب تلهج :

– الحمد لله ... الحمد لله ... الحمد لله ...



سقوط شهاب

جلس النجم السينمائى أحمد شهاب فى محبسه فى سجن الاستئناف وقد وضع رأسه بين كفيه . الجدران تطبق على أنفاسه ، والهواء مشبع بالرطوبة والكآبة ، والنافذة العالية لا يستطيع أن يرى الدنيا والبشر من بين قضبانها ، وهو الذى طار بين أرجاء المعمورة وأصقاعها ، وأعاد أمجاد ألف ليلة وليلة سواء فى جلسات الأنس وسهرات المتعة التى كان يعقدها فى فيلته الأنيقة المطلة على نيل القاهرة أو فى شقته الفاخرة الرحبة المطلة على بحر الإسكندرية أو فى يخته الصغير المتهادى على أمواج البحر أو النيل .

كيف يخرج من هذا الكابوس الذى أطبق على أنفاسه حتى كاد يزهقها ؟! وهل هو كابوس من صنع يديه أم أنه قدر كامن فى داخله دفعه إلى هذا المصير المشئوم الذى يليق بعتاة المجرمين ؟! وهو النجم الساطع فى سماء الفن والذى يعيش فى بحار من حب الجماهير وتدفق الثروات ؟! هل يصدق أنه اليوم اقتيد فى الصباح تحت حراسة مشددة من

سجن الاستئناف ليتلو عليه القاضى التهمة المنسوبة إليه وهى حيازة مواد مخدرة ، أفيون وهيروين ، بقصد التعاطى والاتجار ؟! هل يعقل أحد أن أنهار الثروة التى غرق فيها جفت كلها أو كادت فى مواجهة بالوعات الكيف ؟! .

طلب رئيس النيابة من المحكمة استمرار حبس المتهم حيث أن تحقيقات النيابة لم تنته ولانتهاء مدة الحبس الاحتياطى خشية تأثير المتهم على الشهود ، وهكذا ترك حياة الفن الجميل ، والشاشة الساحرة وتصفيق الجماهير ، وتوقيعه الكريم على أتوجرافات المعجبات والمعجبين ، إلى متابعة محاميه بقلب واجف وهو يدفع ببطلان إذن التفتيش والتحريات ، ويتساءل عن زملائه المترددين عليه من العملاء سواء فى فيلته أو شقته أو يخته ، ويطلب إخلاء سبيله بأى ضمان أو كفالة تراها المحكمة مع منعه من السفر إذا رأت المحكمة ذلك !! لكن قاضى المعارضات قرر استمرار حبسه ثلاثين يوماً فى حين أمر المحامى العام بإحالته محبوساً إلى محكمة الجنايات !!

ماذا يفعل الآن وهو الذى لم يتوقف أبداً عن الحركة كالطائر المغرد ؟! حتى لو سعى إلى الموت الآن فلن يسعى

الموت إليه ؟! إنهم هنا يحرصون على حياة السجين كما لو كانت ثروة قومية !! إن حرية الانتحار مكفولة للجميع ؛ لكن حتى هذه الحرية محرمة عليه الآن !! .

فالسجين لا يملك حرية التصرف فى أى شيء ! والحكومة لا تحب أن تحمل ذنبه ! قد تحكم عليه بالإعدام وتذهب لتنام ملء جفونها ؛ لكنها لا تمنحه نفس الحق فى حياته !! .

هذه ليست المرة الأولى التى يقبض عليه فيها !! المرة الأولى كانت العقوبة مخففة وخرج منها بعد عام واحد فقط من السجن وعاد إلى المجتمع الطيب معززًا مكرمًا ؛ لكن تحريات المباحث هذه المرة أثبتت أنه يقوم بالاتجار فى الهيروين وترويجه على عملائه المترددين عليه .

ولذلك مهما صال المحامى وجال ، ومهما تصدى للدفاع عنه أعتى المحامين ، فلن يخرج من هذه المحنة سليماً !

تمر حياته أمامه الآن كشريط سينمائى ، فهو لا يملك سوى اجترار الذكريات لعلها توسع من مساحة الزنزانة وتفسح الجدران التى تطبق على أنفاسه . تذكر كيف بدأ حياته الفنية فى المدرسة الثانوية بتمثيل مآسى شكسبير ؟!

كيف مثل (ماكبث) القائد الذى حقق انتصارات أسطورية وأصبح نجم النجوم فى اسكتلندا !! لكن خطأ مأسويًا داخله أحاله من قائد أسطورى إلى سفاح يغوص بأقدامه فى دماء الأبرياء ، تماماً مثله الآن وقد تحول من نجم النجوم على الشاشة الذهبية إلى طريد المجتمع الذى يتراوح مصيره بين الإعدام أو السجن المؤبد !! .

الغريب أنه درس الدراما والتمثيل بعد ذلك دراسة أكاديمية وعرف القانون الذى يحكم مصير البطل المأسوى ، فالخطأ الذى يرتكبه لارجعة فيه ؛ لأن الزمان لا يعود إلى الوراء ولو لمجرد لحظة واحدة ، وعليه أن يدفع ثمن هذا الخطأ حتى نهاية عمره ، وغالباً ما تكون حياته هى الثمن ، إنه يحيل قصر الأمجاد الذى شيده من رخام ومرمر وعتبات فضية إلى كومة من الرمال الناعمة التى تذروها الرياح مع أول هبة لها أو إلى مقبرة تفوح بالعفن والعدم !! .

كان يظن أن هذه المآسى التى مثلها فى صدر شبابه هى حكايات أو حواديت أو أساطير لزوم الاستهلاك الفنى على خشبة المسرح لإثارة مشاعر الجماهير وطرد الملل عن حياتها اليومية !

لم يكن يدرك أن كُتّاب التراجيديا العظام قد وضعوا أيديهم على أحد القوانين التى تحكم حياة البشر فى كل العصور ! وهو قانون ليس لمجرد التسلية الدرامية فوق خشبة المسرح أو على شاشة السينما وإنما للتطبيق على أفعال البشر الحقيقيين فى الحياة العملية .

فمن لا يستخدم عقله من أجل الرؤية المستنيرة ، ومن لا يحافظ على النعمة التى منحه الله إياها ، ومن يترك نفسه ريشة فى مهب الرياح عليه ألا يندم حين لا ينفع الندم ؛ لأن سقوطه سيكون عظيمًا حين وحيث تقرر الرياح ذلك !!

احترف الفن ؛ لكنه لم يتشرب روحه ولم يستوعب جوهره الأصيل . اعتاد أن يأخذ من الحياة قشورها دون أن يفوز باللباب الذى ظنه ملك يديه عندما انهمرت عليه الثروة لكنه اكتشف عندما ألقى به فى السجن أن أصابعه لم تقبض إلا على حفنة من الرمال الناعمة المراوغة ، وسط بريق الأضواء التى تخطف الأبصار ، لم يسأل نفسه ذات يوم : ما معنى حياته ؟! وماذا قدم لجمهوره الذى أغرم به ومنحه كل حبه ؟! .

لم يقدم له سوى القصص المقتبسة عن أفلام أجنبية لا تمت للروح المصرية بصلة ، والإثارة الساذجة المفتعلة التى ينتهى أثرها بمجرد انتهاء الفيلم وإضاءة أنوار القاعة ،

يقولون : إن السينما فن وصناعة وتجارة ، وإنها لا بد أن تربح حتى تواصل رسالتها الفنية والثقافية ؛ لكنها فى الواقع الراهن صناعة بدائية وتجارة نهمة بدون مبرر ، لقد أصبحت الموضوعات الجادة من الممنوعات المرفوضة مقدماً بحجة : الجمهور عايز كده !! والجمهور من ذلك براء !! .

وكان من الطبيعى أن تسرى هذه الروح المزيفة فى سلوك بعض العاملين فى هذا الحقل لتتوارى القيمة الفنية ، وليتمثل الهدف الأثير فى تكوين الثروات وإنفاقها على المتع المزيفة أيضاً ، وبحكم أنه كان نجم العصر ، فكان من الطبيعى أن تتبلور فيه كل عناصره وخصائصه ، فجرفه التيار الذى جرف (ماكبث) من قبل ، فضاعت إرادته وتلاشت قبضته على دفة حياته ، وتحولت إلى قارب تتقاذفه الأمواج إلى أن ألقت به - أخيراً - فى هذه الزنزانة الخانقة ، الكئيبة الضيقة !! .

لكن مأساته بدأت من أسرته !! كانت حياته ناعمة وطلباته ملبّاةً أولا بأول ؛ بل كان أبوه - رحمه الله - يفخر بأن أحمد ابنه لو طلب لبن العصفور فسيجده فى التو واللحظة ، كانت الأرض التى تملكها الأسرة من أجود الأراضى الزراعية التى عم خيرها الجميع ، وهو بصفة خاصة قد جاء بعد ميلاد

سبع بنات من زوجتين ، وعندما قرر أن يلتحق بمعهد التمثيل لم تقاومه هذه البيئة المحافظة المتزمتة ولم تنكر على ابنها الوحيد أن يصبح من المشخصاتية الذين كانوا فى حكم المتسولين فى أجيال سابقة ، فقد كان اختياره نوعاً من الجبر والفرض على كل من حوله ، صحيح أنه لم يكن موفقاً تماماً فى دراسته وتخرج فى المعهد بعد سنوات عديدة ؛ لكن نجمه سرعان ما سطع على الشاشة ثم تربع على عرش القلوب .

لكنه عندما كان ينتقل من نجاح إلى آخر ، كان ينتقل من قلق إلى قلق أشد ، طارده إحساس ممض ، مخيف شائك بأن سقوطه من على القمة أمر محتمل فى أية لحظة ؛ بل إنه لا ينسى مقالة ذلك الناقد الذى يمقته عندما سقط أحد أفلامه فوضع عنواناً لها : « سقوط شهاب » . فلو كان اسم البطل فى الفيلم هو شهاب لغفرها له ؛ لكنه قصده باسمه الحقيقى ، ولو حاول أن يقاضيه لادّعى أنه يقصد شهاباً من الشهب المتساقطة على سطح الأرض من الفضاء الخارجى .

كذلك لم يخل الوسط المحيط به من الحاقدين الذين يتظاهرون بالحب والحماس لكنه اكتشف مؤخراً أنهم كانوا يقطرون سماً زعافاً ، وأيضاً أقران السوء الذى يسيرون فى

ركابه وينهلون من خيراته مقابل كلمات معسولة زائفة ، وأيضاً أصدقاء الكيف الذين زينوا الجنة له فى جلسات المزاج ؛ لكنه أدرك أخيراً أنها كانت الجحيم بعينه.

ومع ذلك لم يكن العيب كله عيبهم ؛ بل كان دائم الهرب من القلق الذى ينهشه كلما اختلى بنفسه ، ولم تكن هناك سوى جنة الأوهام الكاذبة المؤدية إلى طريق بلا عودة ، وهو طريق لا تتضح معالمه إلا بعد قطع أشواط طويلة فيه ، هذا إذا كان للضياع والسقوط أية معالم ! .

وهو لا يلوم أقران السوء أو أصدقاء الكيف الآن ؛ لأنهم تخلّوا عنه وتبرأوا منه بعد أن كانوا يحومون حوله كالفراشات حول النور ، وإذا كان بعضهم مهتمًا بقضيته فبدافع الخوف من أن يجر رجله فى التحقيق وأن يكون لديه ما يثبت علاقته به سواء فى الإدمان والتعاطى أو الاتجار والتوزيع ؛ لكن فيما عدا هذا ، فلا بد أنه أصبح حديثهم الشهى على كل مائدة ، خاصة الأقزام الذين طالما سعوا ليحتلوا القمة التى كان يتربع عليها ، لقد جاء اليوم الذى يستمتعون فيه بالشماتة والتشفى ، وهو يدرك الآن أن هذا اليوم لم يأت من تلقاء نفسه أو أنه قدر لا رادّ له ؛ بل مهد له الطريق بغفلته وغبائه وضياع إرادته واحترامه لنفسه ، وكان يمكن أن يكون يوماً مختلفاً تماماً

ومليئاً بالبهجة والنور والنصر الجديد ؛ لكن هذه هى عاقبة من لا يصون نعمة الله عليه .

بدأ مراهقته بتدخين السجائر ، لم يبصّره أحد بأن الإدمان - إدمان أى شيء يمكن أن يؤدى إلى إدمان كل شيء - بل كان أبوه فخوراً بابنه الذى بلغ مبلغ الرجال وأصبح يدخن مثلهم ، كان قادراً على شراء أفخر أنواع السجائر المستوردة . عشق السيجارة عشقًا ملك عليه لبه وجعلها فى المقام الأول قبل النساء فى حياته ؛ لكن الكيف يلح دائماً على صاحبه بسؤال يوسوس فى نفسه فى صحوه ومنامه : هل من مزيد ؟! هل من جديد ؟ .

كان أول شيء يفعله عندما يستيقظ بعد الواحدة ظهراً هو إشعال سيجارة قبل أن يضع أى شيء فى فمه ؛ بل كان من متعه أن يستشعر عبق الدخان وقد تشبعت به مسام جلده ؛ لكن مع غياب الإرادة والانجراف فى طوفان الحواس بحثاً عن آفاق جديدة شرع فى تعاطى الحشيش الذى تفنن فى وضعه فى السجائر وإذا به يدخل عالماً سريا احتضنه بحرارة ، ليس لنجوميته المتألقة ولكن لثروته الطائلة .

امتدت قنوات اتصالاته وتشعبت علاقاته مع تجار المخدرات بالباطنية وحارة الروم وعين شمس والجيارة ،

وأصبح خبيراً بالفروق النوعية بين الأصناف الجيدة والأصناف الرديئة ، والتفت حوله مجموعة أهل الكيف من زملائه وأصدقائه الفنانين الذين يتمتعون بأضواء الشهرة وإن لم يكونوا فى قامته ، والغريب أنه فى هذه الدوامة المحمومة لم يعبأ بالأخطار المتربصة به ، وكأنه أصبح محصناً ضدها تماماً ، لا يعرف من أين أتى بهذه الثقة وهذه الطمأنينة فى حين أن بعض أعضاء الشلة سبق ضبطه فى قضايا تعاطى الحشيش ، ربما كان عقله الباطن يوحى إليه بأن الحكومة لا تستطيع أن تمسه وهو محطّ كل الأبصار وملتقى كل الأضواء ، أو ربما أفقدته جلسات الغيبوبة بين طيات الدخان الأزرق الإحساس بالخوف والحرص على اسمه ومستقبله وهى الغيبوبة التى أغرم بها وعشقها بجنون لأنها كانت الواحة الظليلة التى يهرب إليها من صحراء القلق القاحلة الموحشة المحرقة للأقدام المتشققة والشفاه الجافة . كان القلق شبحاً يطارده ليل نهار ، وبدلاً من أن يقهره بإرادته وصموده ، استعان عليه بالشيطان الأزرق الذى جفف منابعه ومعها اجتاح الجفاف منابع حياته نفسها .

لكن الغيبوبة لم تعد متاحة كما كانت فى الأيام الخوالى ، وهاجمه شبح اليقظة الذى يخشاه كالموت ، فقد

قلت جلسات الأنس سواء فى فيلته أو شقته أو يخته أو فى الشقق الأخرى التى كان يتردد عليها مع جوقة الشيخ شهاب كما كانوا يطلقون عليه الشلة .

فجأة ندر الحشيش نتيجة لحملات الشرطة المتتابعة على أوكار التوزيع والضربات الناجحة التى وجهتها لعمليات التهريب سواء من البحر أو الجو أو البر ، فلم تعد دروب الصحراء الوعرة ومسالك الجبال الخطرة مفتوحة أمام المهربين الذين فاجأتهم طائرات الهليكوبتر وسيارات الدوريات الراكبة من حيث لا يعلمون ، أما المهربون القادمون على متن سفن الركاب أو البضاعة أو المتسللون بالقوارب الخشبية أو المطاطية فقد سقطوا كالذباب فى مواجهة مبيدات حشرية قاتلة .

جُنّ جنونه والتفّت حول عنقه قبضة حديدية كادت تزهق روحه . لقد سُدت فى وجهه أبواب الفرج عندما أكد له كبار التجار أن الصنف شحيح فى السوق وأن أسعاره تضاعفت عدة مرات فى أيام معدودة ، فأكد لهم أنه على استعداد لإنفاق ثروته كلها فى مقابل عدة ساعات من جلسات الأنس الغاربة .
وعَدُوه خيراً ، لكن أحدهم نصحه بتناول الحبوب المخدرة ؛ لأن الفرج قد يتأخر لزمن قد يصعب تحديده .

لم يصل إلى لحظات الانسجام والخدر اللذيذ الذى استمتع به فى غيبوبة الحشيش ونشوته ، لكن لم يكن باليد حيلة ، ضاعف جرعات الأقراص لعله يصل إلى عتبات ، الغيبوبة ، لكنه بلغ أعتاب النوم . وما الفائدة من نوم لا يشعر فيه إلا بثقل الرأس وأحلام تقترب من الكوابيس المرهقة بقدر ما تبتعد عن النشوة المشعة ؟! كان يمقت هذا الإحساس بالنعاس الثقيل الذى يمنعه من أن يرشف رحيق الحياة .

ندب حاله كالنسوة العجائز لطوب الأرض لعله يجد من يمسك بيده ويقوده عائداً إلى دنيا الغيبوبة المنتشية التى يقتله الحنين ولو إلى لحظة عابرة منها ، أرشده بعضهم إلى الكودايين فوسفات الذى منحه بالفعل نشاطاً ويقظة وحيوية أشعرته - بالفعل - أنه يستطيع أن يدكّ الجبال أو يطير فوقها مجتازاً البحار والصحارى حتى يبلغ جنة الغيبوبة فيهبط عليها بأجنحته العملاقة ليرتوى فيها بينابيع السعادة الغائبة ؛ لكنه لم يبلغها ، ظلت حلماً بعيد المنال ، وظل يحترق إليها شوقاً إلى أن وضع قدميه على طريق « الدماغ الثالثة » .

كان هذا هو المصطلح الذى يطلقه أهل الكيف على الهيروين ؛ لكن لعل لمسة العقل والمنطق الوحيدة فى انجرافه المحموم المجنون قد تمثلت فى تعاطى الهيروين عن طريق

الحرق وليس الشم الذى تزيد مضاره على الحرق أضعافاً مضاعفة ، ذلك أن مدمن شم الهيروين يعانى من هزال الجسم ونحافته ، واعتلال صحته لفقدانه الشهية نحو الطعام نتيجة لحالة الغثيان المستمرة التى تكاد تغلق معدته فى وجه أى طعام مهما كان شهياً ؛ لكن لكل شيء ثمن فى هذه الحياة ، فلكى يحافظ على صحته بقدر الإمكان أدمن الحرق الذى أتى على ثروته كلها ، لاستهلاكه كميات أكبر من الهيروين .

ارتسمت ابتسامة سخرية مريرة على وجه أحمد شهاب وهو يتابع العتمة التى تزحف على الزنزانة من قضبان نافذتها العالية !! ولا يزال فى جلسته برأسه المنحنى بين كفيه ، تكاد تسحقه التساؤلات والمراجعات كأنها مطارق من حديد على وشك أن تبعثر مخه !! إنه الآن لا يكاد يصدق ما فعله أو ما جرى له ؟! كيف خاض بحار الذل والهوان والمسكنة وهو الذى بدأ حياته الفنية شامخ الرأس ، ينتقل من نجاح إلى نجاح ومن قمة إلى قمة ؟! هل يمكن أن يصل الغباء بالإنسان إلى هذا الحد فيدمر كل نعمة منحها الله له فى حين أنه يظن أنه أذكى الأذكياء ؟! لكن من يضع قدميه بإرادته على بداية طريق الضياع فلابد أن يصل إلى نهايته ؛ لأن إرادته تتآكل مع كل خطوة يخطوها نحو الأفق المظلم !!

انفض شمل شلة تدخين الحشيش حتى بعد أن غمر السوق مرة أخرى ، ذلك أن شلة تعاطى الهيروين تحتقر

متعاطى الحشيش ؛ لأنهم أقل فى المستوى الاجتماعى ، وكأن هذا المستوى له اعتبار عند هؤلاء الضائعين !! فربما كانوا أبناء أكابر مثله ؛ لكنهم يفتحون بيوتهم لتجار المخدرات أرباب السجون ، فهم فى نظرهم أولياء النعم ، وبدونهم يصاب الرأس بالصداع والدوار ويتحول المخ إلى دودة متقلصة داخل الجمجمة !! .

هل يصدق أحد أنه أنفق أكثر من ثلاثة ملايين من الجنيهات على تعاطى الحشيش والهيروين فى حوالى عشر سنوات ؟! تعلم فى صغره أن النفس أمارة بالسوء ؛ لكنه لم يكن يعلم أن هذا السوء لا حدود له ، ولا يتوقف عند حافة الهاوية بل يدفعه دفعا إلى قاعها !! ولم تكن إرادته فى المراحل الأولى قد ماتت تماماً ؛ بل كانت تومض من حين لآخر كالبرق فى الليلة الظلماء ، وكانت إحدى الومضات ساطعة بحيث رأى فيها لمحات من الأفق المظلم القابع عند نهاية طريق الضياع ! .

عندئذ عقد العزم على الخروج من بئر الإدمان ؛ لكنه لم يكن من القوة بحيث يمسح عشر سنوات من عمره كأنها لم تكن ، فى حين أن كل عوامل الإغراء والإغراق لا تزال تدور حوله وتتربص به ، أعلن فى الصحف أنه سيعتكف فى عزبته

لعدم وجود السيناريو المحترم الذى يجدر به أن يمثله ، وسوف يأخذ معه مجموعة من الروايات ، خاصة من التى ينشرها الشباب لعله يجد فيها نسمة جديدة تجدد من الهواء الخانق الملوث الذى تعانى منه السينما المصرية !! .

وكان صادق النية وتمنى أن تكون إرادته على نفس المستوى من المصداقية ، توجّه إلى قريته حيث عاش بين أحضان الطبيعة ووسط أهله وعشيرته من القرية والقرى المجاورة ، ومهما قيل عن التغيرات التى طرأت على القرية المصرية والتى أضاعت خيراتها العتيدة ، فإنها لا تزال تحمل بصمات تلك البكارة البريئة التى لم تفضها أصابع المدينة الملوثة ، هذه البراءة أو البساطة النقية ساعدته على الاستمرار فى التوبة ، كان فخوراً بانتصاره على نفسه ، وكان صادقًا فى اطلاعه النهم فى أمسيات القرية على الروايات التى حملها معه ، ومنها رواية قرر أن ينتجها بنفسه بمجرد عودته إلى القاهرة ، كانت قريبة فى مضمونها من مأساته ووجد أنه خير من يؤديها على الشاشة ليقدم للشباب المعرّض للضياع جمع تجربته ومحنته ؛ بل وشرع – بالفعل – فى عمل تخطيط مسهب للسيناريو الذى سيشارك فى كتابته ؛ لأنه لن يجد كاتب السيناريو الذى يحس مثله بهذا المضمون بحيث يستقل بكتابته تماماً .

كان سعيداً بل ومُنتشياً بالآفاق المضيئة التى تكشّفت أمام عينيه فى هدوء القرية وإيقاعها الذى يغرى بممارسة متعة التأمل ؛ لكن خوفاً دفيناً فى داخله كان يطغى على عقله ووجدانه كلما فكر فى القاهرة والزملاء والأصدقاء ، بمعنى أصح الشلة إياها !! فهو لا بد أن يعود إلى القاهرة مهما طالت زيارته للقرية ، فهى قدره الذى ينتظره !! فلا يعقل أن يعتزل الفن ويقضى بقية حياته فى قريته !! إن مثل هذا القرار لا يعنى سوى الحكم عليه بالسجن مدى الحياة وهو الذى عاش حياته كالطائر المغرّد بين أفنان الشجر وقمم الروابى الخضر ! فليأخذ من القرية زاداً روحياً وفكرياً ومعنوياً يستعين به على رحلته القادمة فى القاهرة ، فلابد أنه اكتسب مناعة ضد كل إغراءاتها المدمرة التى لم يمارسها سوى أمثاله من الذين فقدوا إرادتهم على صخرة الغباء .

وجاء ميعاد رجوعه إلى القاهرة وكان لابد أن يجئ ، عاد وهو يتدفق حماساً وحيوية وصحة خاصة بعد أن نجح فى قهر النوبات التى تعترى المقلعين حديثاً عن التدخين ، وشرع فى الإعداد للفيلم ، وكم كانت فرحة الروائى الشاب بوقوع اختيار النجم الكبير على روايته لتمثيلها بل ولإنتاجها ورفض أن يناقشه فى الأجر ؛ إذ يكفيه شرفاً أن يقدم روايته على

الشاشة الكبيرة ، فيتحول جمهور قرائه من المئات إلى جمهور المشاهدين بالملايين .

ووسط زحمة العمل نسى خوفه الكامن فى أعماقه من القاهرة إلى أن تقابل مع الشلة التى أراد أن يثبت لها قدرته على الانتصار على نفسه ، وعودته إلى قمته الفنية وجمهوره الحبيب ، ودعاهم ذات ليلة للاحتفال ببدء تصوير الفيلم الجديد فى يخته الفاخر الذى أبحر بهم من مرساه عند كوبرى الجلاء فى رحلة نيلية ساحرة إلى حلوان ثم العودة إلى قواعدهم عند مطلع الفجر .

سعدت الشلة بعودة فارسها الذى افتقدته أكثر من ستة أشهر ، لم تقتنع بحكاية التوبة والإقلاع عن الكيف ، فجاءت إلى اليخت ومعها كل أسلحة الإغراء ، منهم الحاقد الذى يريد له أن يذهب بلا عودة حتى يخلى الساحة له ويترك الأجور الخيالية التى يحصل عليها ، ومنهم ابن الكيف الذى يعشق السلطنة على حساب غيره من الميسورين ، ومنهم الذى جرفه التيار ويريد لكل من يعرفه أن يجرفه كذلك ، ولا أحد أحسن من أحد ، ومنهم ومنهم ومنهم !! .

والغريب أن أحمد شهاب كان واعياً بكل هذا ، فهو ليس الساذج الذى لا يدرك ما يدور حوله ؛ لكن شيئاً فى عقله

الباطن كان يؤكد له دومًا أنه يتقبل كل شئ بمزاجه وليس هناك من يستطيع أن يجبره على إتيان شيء لا يرغبه ؛ لكن هذا المزاج كان الغطاء الذى أخفى به عن نفسه فقدانه للإرادة ، ذلك أن عبوديته للمزاج لا تعنى سوى عجزه عن كبح جماح نفسه وهذا ما جرى فى تلك الليلة المشئومة على ظهر اليخت المتهادى على صفحة النيل .

مع تسلل الهواء المنعش من نوافذ اليخت التى كشفت عن مبانٍ وإعلانات مضيئة بالأبيض والأحمر والأصفر والأخضر قام خادم الكيف بوضع المسطحات الزجاجية الصغيرة المستديرة على الموائد أمام الأحباب وأحباب الأحباب ، ثم وزع عليهم الأنابيب الزجاجية الرفيعة ثم أخرج من جيبه زجاجة المسحوق الأبيض السحرى ليوزع على المسطحات كميات منه بدقة ميزان الذهب ، وبدأت التعليقات والنكات تدوى فى أرجاء اليخت لتندمج من إيقاع آلاته المكتوم .

حرص خادم الكيف على ألا يضع شيئاً أمام شهاب ، وكلما مر أمامه صاح مهللاً : « تبنا إلى الله » ، فينفجر اليخت ضحكات وقهقهات ! تذكر شهاب أنه حتى لو قرر مشاركتهم فإنه لن يستطيع ؛ لأنه لم يتعود على شم الهيروين ؛ بل كان

يفضل دائماً حرقه واستنشاق دخانه ؛ لكن كلما توغل اليخت في عتمة النيل و تلاشت الأضواء يميناً ويسرة ، أحس برغبة عارمة في الاندماج مع طيات هذه النشوة السارية التي حرم منها أكثر من ستة أشهر قضاها بين المروج الخضر والنخيل والسواقي والناي الذي يطلق آهاته على ضفة الترعة الناعسة تحت أغصان الشجر التي تنحني على صفحتها تكاد تقبلها .

نظر إليه الزميل الحاقد بعيون شبه مسبلة ، وقال وهو يدعي المداعبة الأخوية الحميمة :

– ساعة الحظ لا يمكن أن تعوض !! لحظات السعادة في هذا الزمن أصبحت عملة نادرة .. والحكيم هو من يقتنصها كلما حانت له الفرصة ! وطالما أنه يملك الإرادة فلا خوف عليه ؛ لأن القرار سيظل في يده إذا أراد أدمن وإذا أراد امتنع !! أنا لا ألهث وراء الكيف ؛ بل أتركه حتى يأتي إليّ يجر أذيال الخيبة ويقبل الأرض بين قدمي فأقبله ذليلاً صاغراً !! ولذلك فالأمر ليس في حاجة للهروب ستة أشهر في الريف .. فالإرادة هي المواجهة وقتما تريد وحيثما تشاء !! .

صمت وشهاب يقول لنفسه : إن ما ينطق به هذا الزميل الذي ظنّه حاقداً هو عين العقل ، فجأة قال دون تفكير :

– ليس هناك ما يمكن أن يستعبد معبود الجماهير .. إليّ بالكيف فساعة الحظ لا يمكن أن تعوض !! .

وكأن خادم الكيف كان رهن الإشارة ، في الحال كان كل شيء معدًا أمامه ، تردد بعض الشيء ؛ لأنه كان يفضل الحرق على الشم ، لكنها مناسبة لا يجب أن تفوته ، وخاصة أنه سينهمك بعد ذلك في إنتاج الفيلم وتمثيله لتقديمه هدية إلى الشباب الضائع ، وعليه أن ينهمك الآن في النشوة القديمة التي طالما كبت حنينه القاتل إليها وظن أنه برئ من إغراءاتها إلى الأبد !! .

وجرفه التيار مرةً أخرى ؛ بل أصبح عاتيا أكثر من ذي قبل . نسي إنتاج الفيلم وتمثيله وأسرع بالتوقيع على خمسة أفلام في وقت واحد ، منها أربعة أفلام من النوع المعروف بأفلام المقاولات والذي لا يستغرق إخراج الواحد منها أكثر من عشرة أيام ، كان التصوير يجري في النهار وهو على أحرّ من جمر في انتظار جلسات الأنس والطرب حتى مطلع الفجر ، وتوطدت علاقاته الحميمة مع تجار الموت الذين سمح لهم بالتردد على فيلته .

كانت الشرطة قد وضعته تحت الرقابة عندما تأكدت أنه عاد إلى سيرته الأولى باندفاع غريب ، وعندما عرفت إقدام

تجار الموت بيته لم يعد فى الإمكان الانتظار أطول من ذلك ، وتمت مداهمة الفيلا فى إحدى جلسات الأنس ، وجرى القبض عليه وعلى من معه متلبسين بتهمة التعاطى ، وضبطت أدوات الكيف ، وأحيلوا جميعاً إلى النيابة وهو يعانى من كابوس لا يستطيع أن يستيقظ منه على صبح جديد ، أصبح الموضوع المفضل للعناوين الرئيسية للصحف اليومية بصفة عامة ومجلات الفن والفضائح بصفة خاصة .

ويبدو أن القاضى كان متفهماً لظروفه فلم يرد أن يقضى على مستقبله بعقوبة مميتة ، فآثر أن يجعل من العقوبة إنذاراً له لعله يفيق من غفلته ، صدر عليه الحكم بالسجن سنة واحدة فقط ، وارتدى ملابس المساجين بعد أن ارتداها من قبل فى فيلم أو فيلمين ؛ لكن شتان بين كابوس الواقع وطيف الفن .

فى البداية كانت الصدمة عنيفة ؛ لكن الله منح الإنسان جهازاً عجيباً داخله مثل واقى الصدمات فى السيارة ، يتقبلها بصعوبة فى أول الأمر ، ثم يشرع فى استيعابها والتعايش معها إلى أن تنقضى الغمة ، لم يتصور أن تجربة السجن يمكن أن تكون فسحة من الوقت للتفكير والتأمل ومراجعة الحسابات وتلمس حقيقة الملامح الغامضة التى غابت عنه فى

خضم الحياة خارج الأسوار فبدت هلامية أو لزجة أو مشوّشة بحيث عجز عن تحديد موقفه منها ..

لم يتصور أيضاً أن السجن يمكن أن يكون تجربة روحية عامرة بالصفاء الناتج عن الاختلاء بالنفس الضائعة والإمساك بتلابيبها ومعرفة إمكاناتها وتطلعاتها وآفاقها ، صحيح أنه أصبح سجيناً مثل أى مجرم بعد أن كان يحمل لقب فنان أو ممثل أو فتى الشاشة ؛ لأن قانون الحياة يحتم على الإنسان أن يدفع ثمن أخطائه ؛ لكنه فى الوقت نفسه رأى داخل السجن ما عجز أن يراه خارجه ، رأى نفسه وغاص فى أعماقها بعد أن كان لاهياً عنها لانشغاله بما يقوله الآخرون عنه وعن فنه وعن أمجاده .

كان يعد الأيام التى بدت متثاقلة فى البداية ، كأقدام من رصاص تغوص فى حفر من رمال ؛ لكن الأيام عادت سيرتها الأولى فى دورانها الذى لا يتوقف ، ولم يعد يوم الإفراج بعيد المنال ، وتعلم كيف يفكر فى القلوب التى أحبته ووضعته فى سويدائها لكنه لم يعرها التفاتاً . أمه التى عاشت ملهوفة عليه ولم يتوقف لسانها عن الدعاء له ! أخته الكبرى التى طالما

نذرت النذور لعله يرى هدى الله ونوره ، زوجته الثانية التى صنعت معه المستحيل كى يعود إلى سواء السبيل ، فقضت الليالى مسهّدة قلقة فى انتظار عودته مع طلوع الفجر لتحذره من مغبة أفعاله ؛ لكنه لم يعرها أذناً صاغية ! وعندما وقعت الواقعة لم تذكره بإنذاراتها المبكرة ولم تشمت فيه نتيجة لعدم إصغائه لنصائحها الخالصة ؛ بل وقفت معه وساندته فى أثناء التحقيق ثم المحاكمة ، ولم تتوقف عن زيارته فى السجن وتشجعه بابتسامتها الحانية فى انتظار انقشاع الغمة وعودته إلى بيته وفنه وجمهوره ، فهى على النقيض تماماً من زوجته الأولى التى كان بالنسبة لها مجرد دجاجة تبيض لها ذهباً ، ولم تقاوم إدمانه إلا عندما تحول إلى بالوعة لمعظم الثروة الواردة عليه ، بحيث لم يتبقّ لها فى نظرها سوى القشور ، وتصاعد الصراع بينهما إلى أن وقع الطلاق .

أما زوجته الثانية ، فقد كانت بمثابة هدية السماء له ؛ لم تكن له سوى حب بلا حدود ، واستماتت فى رعايته ؛ لكنه كان دائماً أعمى البصيرة ، غير قادر على ادراك نعم الله المحيطة به ، فقد حصل على الشباب والوسامة والموهبة والشهرة والمجد والحب ؛ لكنه آثر - بغباء شديد- أن يضع كل هذه

النعم تحت رحمة خطأ واحد أصر على مواصلة ارتكابه ، فقد أوحى إليه الوهم المريض بأن لحظة عابرة من السعادة المزيفة أثمن وأمتع من كل هذه النعم الحقيقية التى يلمسها كل من حوله إلا هو !! .

لكن الإحساس الغريب أنه كلما اقترب يوم الإفراج ، طفحت مخاوف غامضة داخله ! دأب على تفسيرها بأنه من احتمال أن يقابله المجتمع بالرفض بعد أن فتح له قلبه وأجلسه على عرش الفن ، فإذا به مدمن من أصحاب السوابق !! هل يمكن أن يخرج من السجن ليجد موكب السينما قد فاته ؟! وضع هذا فى اعتباره ، عندئذ عليه بالعودة إلى قريته ليعيش حياة البراءة والنقاء بعيداً عن أدران المدينة !! لكن هل فى استطاعته الاستمرار فى مثل هذه الحياة الملقاة خارج هامش الوجود الحقيقى وهو الذى رأى فى الأضواء والتصفيق وصيحات الإعجاب زاداً متجدداً له كل يوم ؟! .

ألف سؤال وسؤال ، وملايين المخاوف انهالت على رأسه كالمطارق التى كان يشعر بها كلما تأخر عن ميعاد الكيف !! هل يعقل أن تكون الحرية مخيفة إلى هذا الحد؟! هل اعتاد حياة السجن المملة ، الرتيبة ، الخانقة لدرجة أنه أوشك

على إدمانها هى الأخرى ؟! إنه يدرك الآن المعنى الذى قرأه كثيراً من قبل والذى يؤكد أن الحرية هى مسئولية !! إنه يشعر بثقل هذه المسئولية الآن كلما اقترب يوم الإفراج ويدعو الله أن يكون جديراً بحملها مهما كان شكلها ومهما كان مضمونها !! .

وجاء اليوم الذى لفحته فيه نسائم الحرية ، كان يوم الابتسامات والدموع والأحضان والقبلات ، خرج إنسانا جديداً إلى حد كبير ، يرى الدنيا بمنظار خبير أو حكيم يرى ما لا يراه الآخرون ، وكان أروع شيء أن نظرة المجتمع لم تتغير تجاهه بل ازدادت حنوا والتفافاً حوله . عجيب أمر هذا المجتمع !! يملك قدراً من التسامح والسماحة والغفران ما لا يمكن أن يقبله مجتمع آخر !! مثل الأم الحنون التى تواصل تدليل أبنائها مهما ارتكبوا فى حقها من أخطاء وخطايا . كان المنتجون السينمائيون متهيبين الأمر فى بدايته فلم يلوحوا بالعقود فى أيديهم كعادتهم خوفاً من أن تكون الحكومة لا تزال على موقفها منه بالنبذ والرفض ؛ لكن عندما تأكدوا من أن الحكومة خصم شريف يأخذ حق المجتمع كما يمنح الفرد حقه ، عادت المياه إلى مجاريها ؛ بل إن الحس التجارى عند بعضهم دفعه إلى توقيع أكثر من عقد واحد على أساس رغبة الجمهور فى رؤية ماذا جرى لنجمه المفضل بعد خروجه من السجن ؟! .

واستقرت الأحوال بل وتطورت إلى الأفضل !! وعادت إليه ثقته بنفسه التى أوشكت على التحول إلى نوع من الغرور الكريه فى بعض الأحيان ، وتبخرت ذكريات تجربة السجن وقبعت فى زوايا العقل الباطن المظلمة ، لدرجة أنه لم يتصور أنها كانت تجربة حقيقية ؛ بل مجرد كابوس مر به فى ليلة ثقيلة ثم استيقظ منه !! فقد عادت الأضواء مرة أخرى لتؤكد له أنه أقوى من كل الاعتبارات التى يمكن أن تشكل عقبات فى وجه زحفه الفنى على طريق المجد حتى السجن نفسه الذى يمكن أن تحطم تجربته الكثيرين ، زاده تألقاً على تألق ، لدرجة أن البعض قالوا : إنها تهمة قام خصومه بتلفيقها ضده حتى يزيحوه من على قمته الشامخة ، وإن كان بعض الشامتين والحاقدين قد أبدوا اشمئزازهم من المجتمع الساذج المتخلف الذى يفتح قلبه لمجرد مدمن من أرباب السوابق ويضعه فى هذه الدائرة من الأضواء الخاطفة للأبصار !! .

لكن يبدو أن هؤلاء الشامتين والحاقدين كانوا حكماء فى الواقع ، فى حين كان المعجبون والمتحمسون إما سذّجاً أو مداهنين !! فقد سرت مخايل جنون العظمة فى وجدانه

وعقله وفكره ، وظن أنه يملك إرادة حديدية تمكنه من الإتيان بالخوارق !! هل يصدق أحد الآن أن هذا النجم الساطع كان مجرد سجين يرتدى بذلة السجن الكئيبة وينام فى زنزانة خانقة ؟! كيف يصدق أحد هذا وهو نفسه لا يكاد يصدقه ؟! .

فى حمية العمل اللاهث والتنقل المحموم بين أماكن التصوير كان فى حاجة إلى فترات من الراحة يلتقط فيها أنفاسه !! صحيح أن زوجته المحبة كانت معه كظله : سكرتيرة وزوجة ومحبة وعاشقة ، تحنو عليه وتحيطه بكل أنواع الرعاية ، إلا أن شيئا غامضا قابعاً فى أغوار نفسه وسوس له بأن من حقه أن يحصل على قسط وافر من السعادة فى مقابل هذا الإجهاد المتواصل كفرس رهان فى سباق لا يرحم !! .

عاتبته زوجته على هذه الأحاسيس الغريبة قائلة :

– أليس فى حبى لك سعادة كافية لك ؟! إذا كنت تشعر بالإجهاد والإرهاق .. فلنحصل على أجازة من العمل ونسافر إلى أوروبا أو أمريكا لقضاء شهر العسل الذى لم أفز به مثل كل النساء عند زواجنا !! .

صمتت لتقرأ ما يدور فى عينيه الشاردتين وتسمع ما سوف يقوله ؛ لكنه لم يقل شيئا واكتفى بإطلاق سحب كثيفة

من الدخان الصافى الشفاف وكأنه يزفر محاولاً إزاحة حمل ثقيل من على قلبه ، قالت فى نفسها : « فعلا .. لا يملأ عين البنى آدم سوى التراب » ثم قالت له :

- رعاية الله لنا لا حدود لها برغم كل شيء !! أليس فى هذا سعادة كافية ؟! قرأت مرة لفيلسوف لا أتذكر اسمه أن مأساة الإنسان أنه لا يشعر بالسعادة إلا إذا فقدها فالمصاب بألم فى الضرس يظن أن من لا يعانى من هذا الألم هو أسعد إنسان على وجه الأرض فى حين أنه لا يشعر بهذه السعادة على الإطلاق .. وقد ذكرنى هذا الرأى بالحكمة التى تعلمتها فى المدرسة والتى تقول : إن الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى !!

ثم ضحكت محاولة أن تثير جوًا من المرح :

- وأنا بدورى يمكن أن أكون فيلسوفة وأقول : إن السعادة تاج على رءوس السعداء لا يراه إلا البؤساء التعساء !!

لكنه لم يشاركها الضحك بل نهض قائلا فى اقتضاب :

- سأسهر الليلة عند أحد المنتجين لقراءة سيناريو جديد .. لا تنتظرينى بل نامى أنت ولا تجهدى نفسك بدون مبرر !!

هـذه هى المرة الثالثة التى عاد فيها إلى السهر الغامض ! قلبها ينبؤها بأشياء خطيرة . فى المرة الأولى صدقته ، وفى المرة الثانية نصحته بأن يرعى صحته فلا يعقل أن يجهد نفسه طوال النهار ثم يقضى الليل بطوله ساهراً ، وفى هذه المرة قلبها يحدثها أن خيوط العنكبوت قد بدأت فى الالتفاف حوله ، وسرعان ما تتحول إلى أذرع أخطبوط لن يفلت منها هذه المرة . لم تجد بداً من أن تبادر إلى قطع الشك باليقين ، فالقضية قضية مصير ولا مجال فيها للحساسيات التقليدية ، قالت فى حسم :

ـ إذا كنت قد عدت إلى سهرات الكيف .. فتأكد أن هذه المرة ستكون الأخيرة .. لن يرحمنا الناس أبداً !! .

استدار قبل أن يخرج ليقول لها فى صلف :

ـ لو كنت قد أنجبت أطفالاً لا نصب اهتمامك عليهم ..بدلا من إحصاء سكناتى وحركاتى بهذا الشكل !! .

ـ أنت تعلم أن الأطباء نصحونا بعدم التعجل .. فسيأتى كل شيء فى أوانه .. لكن إذا كنت تظن أن خوفى عليك وحبى لك هما بمثابة رصد لسكناتك وحركاتك فأنت مخطئ تماماً !! لكننى أضيف بمنتهى الصراحة أنك لو عدت إلى الكيف ، فعليك هذه المرة أن تختار بينى وبينه !! فما جرى لنا لا يمكن أن يتكرر بأية حال من الأحوال !! .

بانت بوادر عجرفته التى أصبحت تمقتها فى الأيام الأخيرة :

- أتظنين فى نفسك القدرة على تهديد أحمد شهاب؟!

- لا تحاول ليّ عنق الكلام .. لو عدت إلى الكيف فلن أبقى معك لحظة واحدة !! .

- سواء عدت أم لم أعد فمن حقك أن تعيشى حيثما ترغبين !! أنت لست فى سجن .. وأنا لست سجانك !! .

- إذاً .. فقد عدت ؟! .

- ليس من حقك أن تفرضى وصايتك عليّ ! .

- إنها حياتى كما هى حياتك !! .

لم يرد ، وشرع فى التوجه إلى باب الخروج ، فقالت بنبرات مؤكدة :

- سأتأكد من نوع سهرتك الليلة .. فإذا كانت سهرة من سهرات ما قبل السجن فلن تجدنى عند عودتك مع مطلع الفجر !! .

- إذا كنت قد قررت التجسس عليّ ومحاصرتى فأحب أن أقول لك : إننى حر فى أن أسهر مع من أشاء مهما طال

بى الوقت .. وإذا كنت تريدين أن تعرفى نوعية السهرة .. فليطمئن قلبك .. إنها سهرة كيف من الطراز الأول ..

صعقت وهو يضيف قوله بنبرات جافة كأنه يتعمد جرحها :

– وإذا أردت أن تعرفى العنوان فلن أتأخر عن منحك إياه .. حتى يمكنك إرشاد البوليس إلينا بسهولة !! .

حاولت الإمساك بزمام أنفاسها اللاهثة :

ـ لا تظن أن البوليس فى انتظار إرشادى له .. إنهم يعرفون كل شيء وينقضون فى التوقيت الذى يحددونه .. لكننى لن أكون معك هذه المرة .. المرة الماضية لم تصبنى بأى رذاذ .. لكن المرة القادمة لابد أن يأخذونى بجريمتك .. فلا يمكن أن تكون زوجة مدمن بهذا الإصرار ، بريئة براءة الذئب من دم ابن يعقوب !! .

التفت إليها فى جنون وانهال على وجهها بصفعة مدوية :

ـ اخرسى !!

وفتح الباب ليخرج ويصفقه خلفه فى عنف كاد يحطمه ! .

وتـم الطـلاق ليـغـرق أحـمـد شـهـاب حـتى أذنيـه فى جلسات الأنس والنشوة ومعه الحبيبة الجديدة النجمة الساطعة (أطياف) التى شاركته الكيف والفراش بلا حدود فأدمنهما هما الاثنين ! بل وتزوجا فى حفل أسطورى عقد فى أفخر فندق مطل على النيل ، وعاش معها ليالى ألف ليلة وليلة ، بل وانطلقا سويًا إلى مغانى أوروبا وربوع أمريكا لقضاء شهر عسل استمر تسعين يوما ، عادا بعده ليقتسما سويا بطولة خمسة أفلام متتالية أو متزامنة ، فكانا يقضيان النهار فى التـصـوير والليل فى الأنس والنشـوة ، بحـيث طارت الأيام كروائح عطرة مع طيات الرياح .

لكن تكاليف الإدمان لاثنين غير تكاليفه لواحد ، تدفقت الثروة ، لكنها كما تدفقت تسربت من بين أصابعهما كرمال ناعمة فى أيام عاصفة ، وكانت علاقاته بتجار الكيف والموت قد توطدت تماما ففتح لهم بيته على مصراعيه ، وعندما شكا لأحـدهـم النزيف المـالى الذى يعـانى منه والذى أوشك على القضاء على مدخراته أيضا ، عرض عليه أن يشاركهم فى الاتجار والتوزيع ليحصل على ثروة تكفيه العمر كله مهما أنفق منها وبذر !! .

تردّد فى بداية الأمر ؛ لكن التاجر أقنعه بأنه سيقوم بالتوزيع على أرقى طبقات المجتمع التى يتعامل معها

ويصادقها ، وهو يعلم جيدا كبار المدمنين فيها ، وهى طبقات لها ميزتان لا تتوافران فى أية طبقة أخرى : الميزة الأولى أن ثروتها لا تنفذ وبالتالى لن يأتيه مدمن بهدف الاستدانة للحصول على الصنف ، والميزة الثانية أنها طبقات بعيدة عن أيدى البوليس الذى ربما كان يعرف كل شيء عنها ؛ لكنه لا يحب أن يورط نفسه فى مشاكل هو فى غنى عنها ، فهى طبقات أخطبوطية من المصالح المتشابكة ومناطق النفوذ ومراكز القوى التى يصعب المساس بها ، وبالتالى ستكون تجارة آمنة وتوزيعا أكثر أمنا ، بعدها تنهال عليه الثروة من حيث لا يدرى ولا يعلم ، ثروة يتضاءل أمامها ما يحصل عليه من دخل من عمله بالسينما إلى درجة السخرية ، فإذا كانت صناعة السينما تقيس الأجور بالآلاف فإن تجارة الكيف تقيس الأجور بالملايين !! .

اطمأنت نفس أحمد شهاب !! فكلام الرجل كله عقل ومنطق ووعى وثروة وخير لا حدود له ! فهل يكفر بالنعمة التى جاءته عند قدميه ؟! إنه يقضى الساعات الطويلة فى عمله السينمائى يوميا للحصول على أقساط العقد ، فى حين يقضى لحظات عابرة فى مقابلة الزبائن والعملاء فيحصل على أضعاف أضعاف العقد السينمائى ؛ ولذلك قسم وقته بين فن

السينما وتجارة الكيف ، ولم تتدخل زوجته لتقييد حريته ؛ بل بلغت بها الحساسية درجة أنها كانت تترك له البيت كله لتزور أختها أو صديقة لها عند لقائه بكبار التجار أو الزبائن ، وكان يقدر لها هذه الرقة فيغدق عليها معظم ما يعود عليه من تجارته الجديدة .

عاش على مستوى المليونيرات ؛ لكنه لم يوفر شيئا يذكر ، كان فى غاية الاطمئنان ، إذ أثبتت الأيام صحة نصيحة التاجر ، فهو يتعامل فى الصنف جهاراً نهاراً لدرجة أنه تجاوز حدود النصيحة وأصبح يستخدم التليفون فى معاملاته ، ولم يحدث أن قبض عليه أحد ، وكان يداعب نفسه متسائلاً : كيف سجن لعام بأكمله لمجرد التعاطى ، والآن يتعاطى ويتاجر ويوزع وأصبح مركز شبكة خطيرة ولا يقبض عليه ؟! ودارت الأيام كالأحلام ؛ إذ يبدو أنها دانت له تماما لدرجة أن الملل اعتراه لعدم وجود إشباع جديد يمكن أن يحققه !! .

وذات مساء ذهبت زوجته لزيارة أختها كالمعتاد بعد أن علمت أن مؤتمر قمة من كبار التجار سينعقد فى بيته ، كان الهدف من هذا المؤتمر توسيع نطاق النشاط بعد أن انضم إلى الشبكة تجار وموزعون من بعض الدول العربية لدرجة أن أحمد شهاب ضحك وقهقه وهو يقول لأولياء النعم : إنه كان

يظن أن التوزيع لمصر ولجميع أنحاء العالم قاصر على أفلام السينما فقط .

وكان فى الفترة الأخيرة قد ركب خزانة سرية أسفل أحد جدران غرفة مكتبه لا يمكن اكتشافها على الإطلاق ، تماما مثلما يحدث فى الأفلام ، وكانت هذه الخزانة قادرة على احتواء هيروين بما لا يقل عن ثلاثين مليون جنيه ، ولم تكن جلسة مباحثات فحسب بل امتدت لتشمل التبادل وقيد الحسابات على أحدث الحاسبات الإلكترونية ، ولم يأت التجار فى سياراتهم الفارهة من موديل « الشبح » و « البودرة » بل جاء معظمهم فى سيارات أجرة ، ومن جاء فى سيارته تركها بعيدا عن البيت ، فى حين وقف اثنان من الناضورجية على الرصيف المقابل للفيلا ، ومع كل منهما جهاز لاسلكى صغير على سبيل الاحتياط .

جلس شهاب القرفصاء ليفتح الخزانة ويضع الخير العميم الوارد من الأحباب ، وإذا بالجميع فى قاع كابوس لا يستطيعون مجرد الطفو على سطحه ، خاصة العرب منهم الذين جاءوا للتعامل مع أقرانهم المصريين إيمانا بالوحدة العربية على حد دعاباتهم الساخرة فى الجلسة التى انتهت

ورجال الشرطة السرية وغير السرية يقفون حولهم فى الغرفة شاهرين مسدساتهم فى حين انهمك بعضهم الآخر فى تفتيش كل أركان الفيلا بدقة من يبحث عن دبوس ذهب وسط أكوام من القش فى يوم عاصف !! .

هاهو الآن ملقى فى الزنزانة لا يجد من يقابله من حين لآخر سوى محاميه ! كانت جريمته فى المرة السابقة هى التعاطى ، وكانت هى السابقة الأولى التى غالبا ما ينظر إليها القضاة بعين الرأفة ، أما الآن فما هى حجته فى الحصول على الرأفة ؟! إنه يتساوى تماما مع عتاة التجار الذين قبض عليهم معه والذين ظنوا أن بيته كان أكثر أماكن اللقاء أمناً وأماناً بعد أن اتخذت منه الصحافة المثل الأعلى للشباب فى القدرة على التوبة وقهر الإدمان اللعين !! .

سأل محاميه فى محبسه عن زوجته وعن السر فى أنها لا تحاول الاتصال به ، فحاول المحامى التملص من الإجابة إلى أن أجبره عليها بإلحاحه :

- زوجتك تقول للصحافة الآن : إنها لم تكن تعلم شيئا عن إدمانك واشتراكك فى التجارة والتوزيع .. وعندما بلغت أذنيها بعض الشائعات حذرتك وهددتك بفضحك وطلب

الطلاق .. لكنك أقسمت لها أنها شائعات الحاقدين والموتورين .. ونظرا لأنها لم تكن واثقة فى قسمك ، وخاصة أنك مدمن سابق على أحسن الفروض .. كانت تقضى معظم أوقات فراغها عند أخواتها وصديقاتها .. وفكرت ذات مرة فى إبلاغ الشرطة ؛ لكنها خشيت من الفضيحة ؛ لأنها لم تكن تملك أى دليل مادى يمكن أن تتهمك به !! .

صمت المحامى ليلتقط أنفاسه ، فزمجر شهاب :

- الفاجرة .. لن أطلقها وسأعرف كيف أعلقها من عرقوبها !!

- القضية ليست قضية طلاق الآن .. كما أنه من السهل عليها طلب الطلاق من المحكمة وأنت فى وضعك هذا !!

- إذاً .. سأجر رجلها فى التحقيق .. فلن أكون أنا الضحية الوحيدة فى هذه القضية !! .

- يبدو أنها عملت حساباً لكل الاحتمالات !! ألم تقل : إنها كانت تغادر المنزل بمجرد معرفتها بمجئ العملاء ؟! فى حين كنت تظن أنها تريد أن تمنحك الحرية فى التصرف دون أى حرج أو حساسية ؟! لكنك لوكنت تملك أى دليل ضدها .. فلابد أن يصلح صورتك بعض الشيء .. لأنها عرفت كيف تشوهها تماما !! .

حاول شهاب أن يجمع شتات فكره بحثا عن دليل يدينها :

- سأشرح للجميع أنها مدمنة من الطراز الأول .. وأننى أنفقت كل دخلى على إدمانها .. بل إنها كانت تشجعنى وتدفعنى إلى هذا الطريق الآثم مستغلة ضعفى السابق تجاه الإدمان !! .

- المسألة ليست مجرد توجيه اتهامات بلا أى دليل القضاء لا يأخذ إلا بالدليل المادى الملموس !! وامرأة بهذا الشكل لابد أن تكون قد اتخذت كل احتياطاتها الآن بصفة خاصة حتى لا يمسها أى شيء من قريب أو بعيد .. وخاصة أنها أتقنت دور الحمامة الوديعة التى وقعت فى براثن ذئب مفترس لم ينقذها منه سوى القبض عليه لتقديمه للعدالة حتى تأخذ منه قصاصها للجرائم التى ارتكبها فى حق المجتمع الذى منحه من الخيرات والأمجاد والثروات ما لم يكن يحلُم به أى فنان آخر !! .

أطرق شهاب برأسه وأوشك أن يلطم وجهه كالنسوة العجائز ؛ لكنه تماسك وقال بنبرات تقطر مرارة وأسى :

- أنا أستحق كل ما يمكن أن يجرى لى !! لابد أن أدفع ثمن الكفر بالنعمة !!

- أنا لست من أنصار البكاء على اللبن المسكوب .. ما يهمنى الآن ليس ما فعلت .. وإنما ما الذى يمكن أن نفعله كى نصلح بقدر الإمكان من شأن ما فعلت ؟! .

وتبودلت الأسئلة والاستفسارات والتعليقات والتبريرات والتفسيرات وكل الثغرات التى يمكن أن يتسلل منها الدفاع لصالح المتهم ؛ لكن المرارة التى سرت فى عروق شهاب وشرايينه أكدت له أن الأساليب التقليدية لن تفيده فى كثير أو قليل !! إنه كان دائم البحث عن معنى لحياته بل ورسالة يقوم بها تجاه مجتمعه الذى أحبه ومنحه كل شئ ، ولم يقدم له فى مقابل هذا سوى أفلام التسلية الرخيصة التافهة التى تنسى بمجرد انتهاء الفرجة عليها .

إنه يريد الآن أن يقدم للمجتمع الجانب الطيب الأصيل فى شخصيته التى أصبحت صورتها قمة فى القبح والحقارة والانحطاط ، لم يقتنع بنصائح محاميه وإرشاداته وتوجيهاته التى تعلمه كيف ينكر ، ومتى يتنصل ، وأين يلقى التهمة على الآخرين بهدف تخفيفها عليه ؟! وبصرف النظر عن ثبوت التهمة أو حتى نفيها من خلال الثغرات الإجرائية والشكلية التى يتفنن فيها المحامون ، فليس هذا مطلبه ، فلم تعد الشهرة والثروة من الأهداف المرغوبة فى حياته ، فقد كانت من الأسباب التى دفعته إلى طريق الهلاك ، فالغرور عندما يصيب الإنسان فإنه يفقد القدرة على الرؤية الصحيحة ،

وبالتالى يمكن أن تقوده قدماه بلا تفكير صوب أية كارثة مثل الكارثة التى غرق فيها الآن حتى أذنيه فالعقل إذا توقف عن التفكير السليم ، فإن القدمين يمكن أن تسيرا فى أى اتجاه !!

مع تسلل خيوط الفجر من بين قضبان نافذة الزنزانة ، جاءته الفكرة التى سرت فى عروقه وأعصابه ببعض الاسترخاء سيكتب قصته المأسوية بكل تفاصيلها ، سيعترف بكل شيء حتى الأشياء التى لم تصل إليها الشرطة أو النيابة أو المحكمة ، لقد أضاع حياته سواء بإرادته أو بفقدان هذه الإرادة ، لكنها لم تضع تماماً ، طالما أنه لا يزال حياً وقادراً على الفعل !! فليقدمها عبرة لأجيال الشباب الذى يمكن أن يتعرض لمثل ظروفه ويقع فى مثل هاويته !! ولا يهم نوع الحكم الذى يمكن أن يصدر ضده ، فقد سبق هو القضاء بمدة طويلة عندما أصدر حكمه هو على نفسه بالإعدام الأدبى والفكرى والإنسانى ، وهى أشكال من الإعدام أقسى ألف مرة من الإعدام الجسدى التقليدى الذى تعقبه الراحة الأبدية !

إن كل ما يرغب فيه الآن هو رزمة من الأوراق وعدة أقلام كى يسكب عليها طوفان المرارة والأسى الذى يغمر أنفه

ويكاد يزهق نفسه !! سيظل يكتب ويكتب ويكتب إلى أن يضئ كل الكهوف المظلمة فى ماضيه ، وينير كل الدهاليز المعتمة فى حياته ! فقد أدرك أخيرا أن حياة الأمجاد والأضواء الساطعة لم تكن سوى حياة الكهوف المظلمة والدهاليز المعتمة ، وأنه لم ير النور الحقيقى إلا فى هذه الزنزانة الرطبة المعتمة مع شعاع الفجر الجديد المتسلل من بين قضبان نافذتها !! .

❁ ❁ ❁

سفاح المعادى

استيقظ حى المعادى الهادئ الوقور بأشجاره الباسقة الوارفة على جثة فتاة شقراء جميلة ملقاة فى قاع ترعة الخشاب التى انخفضت مياهها ، لدرجة أن أجزاء من قاعها برزت وقد جف طينها .

لم يشهد الحى جريمة من هذا النوع من قبل ، فقد كانت الجرائم فى الحى من نوع خاص مثل اقتحام شقة يقطنها عجوز ثرى بهدف السرقة التى يمكن أن تؤدى إلى القتل ، أو اختطاف أنثى فى سيارة تنطلق إلى أطرافها المظلمة بهدف اغتصابها ، أو سرقة سيارة تركها صاحبها فى شارع مهجور تفادياً لحفر المياه أو الغاز أو الكهرباء أو المجارى فى الشارع الذى يقع فيه منزله .

أما هذه الجريمة فقد تمت بخنق الضحية بحبل ليفى رفيع ترك بعض الندوب فى العنق ، ولم يحدث أى نوع من الاغتصاب ، فقد كانت الضحية عذراء ولم يحدث أى تمزيق لملابسها الداخلية ، كذلك لم يكن القتل بهدف السرقة ؛ لأن

حقيبة المجنى عليها كانت ملقاةً بالقرب من جثتها وبها أكثر من مائة جنيه بالإضافة إلى كل المعلومات التى أدت إلى معرفة شخصيتها : البطاقة الشخصية ورخصة القيادة وبطاقة عضوية فى أحد النوادى المطلة على نيل المعادى ! .

كانت جريمة فى منتهى الغموض والغرابة ، فقد اعتاد رجال الشرطة والنيابة البحث دائماً عن الدافع الكامن وراء ارتكاب الجريمة ، فغالباً ما يكون الخيط أو المفتاح المؤدّى إلى شخصية المجرم . فإذا كان بدافع السرقة مثلاً ، فإن رجال الشرطة يعرفون معظم المشبوهين ، وإذا لم يستطيعوا الوصول إلى شخصية المجرم مباشرة ، فإن التحريات واستجواب المشبوهين تؤدى بطريقة أو بأخرى إلى مرتكب الجريمة .

لكن القتل هنا يبدو لأسباب قد يستحيل الوصول إليها . فمن أقوال أسرة المجنى عليها لا يبدو أى بصيص من أمل ، فهى محبوبة من الجميع ، ليست لها خصومات أو عداوات مع أحد . تجيد الدفاع عن نفسها ، فهى رياضية بصفة عامة وبطلة فى الكاراتيه بصفة خاصة . كانت مخطوبة لكنها فكت خطبتها لعدم اقتناعها بالخطيب .

وتم استدعاء الخطيب واستجوابه فاتضح أنه خطب فتاة أخرى وهو سعيد بها للغاية وسيعقد قرانه عليها بعد عدة أيام وهو يكن للقتيلة كل تقدير واحترام ، واتفقا على فسخ الخطبة بطريقة متحضرة لعدم اتفاق الميول ، وقد تمنى كل منهما للآخر حظاً سعيداً مع شريك عمره ؛ ولذلك كانت صدمته شديدة للغاية عندما رأى صورتها فى الصحف ، لم يكن يتصور أن يكون هذا هو مصيرها ، وهى الفتاة الجميلة الرياضية المقبلة على الحياة التى لا تلقى من الآخرين سوى كل حب واحترام وتقدير . كان الخطيب خائفاً وقلقاً للغاية من أن تحوم الشبهات حوله ، ذلك أن شكوك الشرطة لا حدود لها ؛ لكنهم تركوه يعود إلى بيته مع اعتذارهم لإزعاجه !! .

أما الصديقة التى كانت القتيلة فى زيارتها فقد أصيبت بصدمة أفقدتها الوعى عندما علمت بالنبأ فى صباح اليوم المخيف ، فقد وقعت الجريمة فى المسافة القصيرة التى سارتها من باب بيت الصديقة إلى سيارتها التى أوقفتها على ضفة ترعة الخشاب . لقد سمعت صوت صرخة مكتومة أو مخنوقة لكنها لم تعبأ بها لأنها لم تتكرر ، فأحياناً يمزح الشباب مع بعضهم بعضاً بمثل هذه الأصوات ، خاصة فى

شوارع المعادى الهادئة المعتمة شبه المهجورة من المارة .
لم يخطر ببالها أنها صرخة صديقة عمرها قبل أن تلقى حتفها على يد السفاح الغامض الذى لم يعثر له على أى أثر أو على أى دافع لارتكابه هذه الجريمة البشعة .

فى الصباح سمعت الصديقة ضجيجاً غير عادى فى الشارع الساكن ، أطلت من نافذتها لتجد مجموعة من الناس وقد وقفت على ضفتى الترعة الصغيرة التى لمحت فى قاعها مجموعة أخرى بينها رجال الشرطة الذين تركوا سياراتهم بحذاء الترعة ، كان هناك شيء ما فى الترعة لم تستطع تبينه للدائرة البشرية التى أحاطت به ؛ لكن قلبها سقط فى قاع قدميها عندما وجدت سيارة صديقتها الصفراء تقف فى نفس المكان الذى تركتها فيه بالأمس عندما توجهت لزيارتها .

شهقت شهقة أوشكت أن تخرج روحها من حلقها ، دست نفسها فى (روب) وهبطت كالمجنونة وخلفها زوجها يتساءل فى ذهول !! عندما خرجت إلى الشارع كان الكابوس الحى فى انتظارها ! رأت رجال الإسعاف يحملون جثة صديقة عمرها إلى السيارة التى فتحت فاها لابتلاعها . انطلقت شهقة

مدوية من أعماقها لتسقط فاقدة الوعى الذى لم تسترده إلا بعد يومين لتجد نفسها فى المستشفى محاطة بكل أسرتها ؛ لكنها سرعان ما كانت تفقده بمجرد تذكر صورة صديقتها الجميلة وقد تحولت إلى جثة هامدة فى طريقها إلى المشرحة .

ولم تكن هذه الصورة هى السبب الوحيد فى الكابوس الذى ترزح تحت وطأته ؛ بل كانت تعانى من إحساس قاتل بالذنب جعلها تصرخ فيمن حولها :

– أنا التى قتلتها !! أنا التى قتلتها !! أنا التى قتلتها !!

صرخ زوجها فيها :

– هل جننت ؟! ما هذا العته الذى تنطقين به ؟! .

فقد جنّ هو بدوره من نظرات الممرضة التى كانت تحقنها بالمهدئ !

وبمجرد أن خرجت الممرضة عادت إلى صراخها فما كان منه سوى أن صفعها دون أن يدرى لعلها تفيق وتخرج من هذه الدوامة التى دارت فى قاعها !! ثم تأسف لها وانهال عليها بالقبلات والدموع وهو يستجديها أن تكف عن هذا الهراء ، هدأت بعض الشيء لتقول بنبرات متقطعة :

– أنا التى تسببت فى قتلها !! أنت التى تسببت فى قتلها !! أمسك زوجها يدها فى حنوّ وهو يقبلها متسائلاً :

– كيف ؟! احكى لى !! .

- لم يكن عندها وقت لزيارتى فى تلك الليلة المشئومة !!

كانت فى طريقها إلى النادى لمقابلة صديق يبدو أنه قرر خطبتها ! أصررت على أن تمر على قبل ذهابها إلى النادى لأريها الطاقم الماسى الذى أهديته لى فى عيد ميلادى وآخذ رأيها فيه !! كنت فرحة جدًا بالهدية وأردت لصديقة عمرى أن تشاركنى فرحتى !! لكننى لم أكن أعلم أننى السبب فى موتها !! لو لم أصر على دعوتى لها لما قتلت !! أنا التى تسببت فى قتلها !! أنا التى تسببت فى قتلها !! .

وانهارت باكية مرة أخرى لكن زوجها كان سعيداً بهذا التنفيس عن الأبخرة والحمم التى أوشكت أن تنفجر بها كالبركان ، تركها تبكى ما شاء لها البكاء لتقول :

- كما أننى سمعت صرختها ولم أهرع لإنقاذها !!.

ضغط على يدها فى حنو وهو يسألها :

- ألا تؤمنين بالمقدر والمكتوب ؟! هل يستطيع إنسان أن يؤخر ساعته ولو لحظة واحدة ؟!

تلعثمت بعض الشيء ، ثم قالت :

- لا .. لا . لكننى لو كنت ...

قاطعها بحسم حاد :

– لو دخلنا فى بند « لو » فلن نخرج منه أبداً !! أنت لم تتسببى فى قتلها !! لأن السبب لابد أن يحمل فى طياته القصد والنية !! وطالما أنك لم تقصدى ما وقع لها ، فأنت لست السبب فيه ولا علاقة لك به على الإطلاق ! لكن الأمر احتاج إلى شهور وشهور لكى تهدأ نفسها وتتخلص ببطء من وطأة إحساسها بالذنب القاتل ! .

دخلت كل التحريات والتحقيقات فى طريق مسدود لم تخرج منها ، فتم إقفال ملف القضية وقيدها ضد مجهول ! مما أصاب مفتش مباحث قسم المعادى ، العقيد حازم شرارة بخيبة أمل كبرى ؛ لأنه اشتهر بلقب شيرلوك هولمز الذى لم تفلت من يده أية قضية دون أن يصل إلى شخصية الفاعل ؛ ولذلك رفض بينه وبين نفسه قيد القضية ضد مجهول ، فهو مجهول بصفة مؤقتة إلى أن يتحول إلى معلوم قد تبدو القضية لغزاً بالفعل ؛ لكن ليس هناك لغز إلا وله حل عاجل أو آجل .

لكن زملاءه فى القسم نصحوه بألا يضيع وقته وجهده فيما لا يفيد ، فهذا ليس إصراراً وإنما عناد قد يؤثر على حالات أخرى ملموسة هى فى أشد الحاجة إلى ذكائه ولماحيته وبديهته ، ثم يداعبونه بقولهم : إنه إذا كان لابد من اكتشاف

القاتل فهو أمامه بلحمة وشحمه ، إنه طارق الذى اعترف أمامه بأنه القاتل ، وطلب منه أن يقيد يديه بالحديد وأن يحيله إلى المحاكمة لإصدار الحكم عليه بالإعدام وتخليص الناس من شروره !!! .

أما طارق هذا فشاب عاش معظم عمره فى حى المعادى ، وكان فى نظر أهل الحى مجرد معتوه أو أبله ، ويقال : إنه أصيب فى صباه بعدة أمراض أدت إلى إصابته بالتخلف العقلى ؛ لكن أحداً لم يكن يخافه ، فقد كان لطيف المعشر ، يقدم خدماته للجميع دون انتظار جزاء أو شكر ؛ بل إن القطط الشاردة والكلاب الضالة فى شوارع المعادى نالت نصيبها من عطفه وحنانه ، فكان يمدها بالعظم وبقايا اللحم والخبز كلما تيسر ذلك ، وكان أحد الجزارين فى الشارع الرئيسى يعطيه ما يمكن أن يمارس به هوايته الإنسانية أو الحيوانية بما تبقى من عظم وجلد !! وكثيراً ما رآه الأجانب والدبلوماسيون الذين يفضلون العيش فى المعادى التى تذكرهم بخضرة بلادهم وبيوتها ، فكانوا يداعبونه ويتبادلون النكات معه بالحركات ؛ لأنه لم يكن يجيد أية لغة أجنبية ؛ بل ودأب بعضهم على منحه بعض المبالغ التى تساعده فى ممارسة هوايته المحببة لقلوبهم ، فقد جاء

معظمهم من بلاد ترى أن للحيوان الحق فى الرعاية والحماية تماماً مثل الإنسان الذى يملك نفس الحق ، ذلك أن حقوق الإنسان لا يمكن أن تجور على حقوق الحيوان ؛ ولذلك كان طارق فى نظرهم إنساناً متحضراً بمعنى الكلمة .

من هنا كانت شعبية طارق الكاسحة ، فلا يوجد فى المعادى من لا يعرفه وقد أغرم بعض أصحاب المحال والمقاهى بتبادل أطراف الحديث معه وتقديم الشاى له لتعليقاته الطريفة على الدنيا والحياة والبشر والمجتمع ؛ بل إن الحى كله لا ينسى يوم أرشد طارق الشرطة إلى مجرم خطير أراد أن يستغله فى عملية سرقة كبرى على أساس أنه سينال البراءة إذا قبض عليه ، وأغراه باقتسام حصيلة السرقة معه ، واستطاع طارق أن يتظاهر بموافقته بل وسعادته بالعرض المغرى ، واتصل بالشرطة سراً وتم ضبط المجرم الخطير متلبساً بارتكاب الجريمة ، ومنذ ذلك اليوم أصبح طارق صديق كل العاملين فى قسم الشرطة ابتداء من المأمور وحتى أصغر عسكرى فيه ؛ بل إنه قيل عنه : إنه أصبح أحد عيون ضابط المباحث على الأشخاص المشكوك فى أمرهم ، لكن هذا لم يضع حاجزاً بينه وبين من يحبونه من أبناء الحى .

كان طارق من أسرة أرستقراطية ثرية ، ماتت أمه وهو فى سن صغيرة ، ولم تكن قد أنجبت غيره ، تزوج أبوه من

شقراء ، جميلة ، كانت تصغره كثيراً في السن ، لكنها كانت طامعة في ثروته ، واستطاعت أن تجعل منه خاتماً في يدها ، بل شعر طارق في تلك السن المبكرة أنها تجرى مكالمات تليفونية مع شبان صغار ، وأحياناً تغيب عن البيت في أثناء غياب زوجها ، وكانت تتصرف بحرية على أساس أن (طارقًا) هذا أبله ولا يعى ما تفعله ، لكنه كان واعياً لدرجة أنه هددها بإبلاغ أبيه إذا لم تتوقف عن المكالمات التليفونية والغياب المتكرر ، عندئذ صرخت في وجهه :

– سأعرف كيف تلزم حدودك !! رضيت بالغلّب والغلّب لم يرض بى !! قالوا لى : إننى سأعيش مع مجنون ، لكننى لم أستمع إلى نصيحتهم !! وفى النهاية يحاسبنى المجنون على حركاتى وسكناتى !! إننى أستحق ضرب الحذاء !! .

وتحولت إلى إعصار كاسح مدمر لم يهدأ إلا بعد أن أخرج الزوج ابنه من البيت أو الفيلا الفاخرة كى يعيش بمفرده فى شقة يمتلكها الأب أيضاً فى المعادى ، ولكى يأمن شر زوجته وطمعها فى كل شيء كتب الشقة باسم طارق حتى لا تنازعه فيها بعد وفاته ، وكان من حين لآخر يزوره للاطمئنان عليه وإمداده بالمال اللازم ؛ لأنه لم يكن يملك أية وظيفة أو دخل ، وكان طارق قد توقف تماماً عن زيارة أبيه فى منزله

بعد الإهانات المنهالة على رأسه من زوجة أبيه الشقراء لدرجة أنه نسى موقع البيت بمرور الأيام .

لم يصدق أحد - بالطبع - إدعاءات طارق بأنه القاتل ، بل أجمعوا على أنه يقترب من الجنون الحقيقى مع الأيام وأن مصيره لا بد أن يحسم فى مستشفى الأمراض العقلية حيث يتحتم عليه أن يقضى البقية الباقية من حياته ، فمن الطبيعى أن ينكر القاتل الحقيقى ارتكابه للجريمة ، لكن من المستحيل أن يدعى أحد جريمة قتل لم يرتكبها وليس له بها أية علاقة من قريب أو بعيد إلا إذا كان مجنوناً بالفعل وتجاوز كل حدود المنطق المعقول !! .

لكن العقيد حازم شرارة تعلم كيف يضع أتفه التفاصيل فى اعتباره ، فربما أدى خيط واه إلى مفاتيح الجريمة برمتها ! ولذلك شغله اعتراف طارق بأنه القاتل !! فربما كان يتستر على شخص أثير عنده ؟! وربما شاهد القاتل وهدده بأنه سيلقى نفس المصير لو فتح فمه بكلمة ، ولكى يحمى نفسه تماماً من هذا التهديد ادعى أنه القاتل حتى يؤكد للقاتل الحقيقى أنه عند وعده لدرجة التضحية بنفسه ! وربما كان يهدف إلى مزيد من لفت الأنظار إليه بحيث يصبح حديث الجميع مما يؤنس وحشته وعزلته عندما يغلق على نفسه باب شقته ويبكى

بمرارة ؟! وربما وربما وربما . كانت كلها احتمالات ممكنة أو سخيفة أو تافهة لا تفضى إلى شئ ؛ لأن العقيد حازم وضع فى اعتباره أنه يتعامل مع إنسان أبله ومعتوه مما جعل مهمته مستحيلة ، لكن مشكلته أنه لا يعترف بالمستحيل فى أحيان كثيرة أى أنه مجنون مثل طارق ، وإن كان جنونه من نوع مختلف !! ولذلك أخذ اعتراف طارق بجدية لم يحاول أن يظهرها ، ليس لإيمانه بأنه القاتل ، ولكن لاعتقاده أنه ربما كان ذلك الخيط الوهمى الذى يمكن أن يؤدى إلى مفتاح الجريمة ، فلا شيء عنده يصدر عن فراغ ، فالحياة عبارة عن سلسلة متصلة من الأسباب والنتائج .

كانت الثقافة والمعرفة سلاحًا فى كل خطواته ، فقرر أن يتوغل فى عالم ضعاف العقول ، فعرف أن ناقصى العقول شبه فاقدى الإرادة ينقادون لغيرهم بدون مقاومة ، وهم لذلك قابلون للاستهواء بدرجة كبيرة ؛ لأن شروط الاستهواء مستوفاة فيهم ، فضعف عقلهم ، وسهولة إغرائهم ، وسرعة التأثير فيهم تسهّل على البعض استخدامهم وتنفيذ خططهم كقطع الشطرنج فى أيديهم ، وخاصة أن بعضهم لا يمكنهم التوافق مع قوانين الأخلاق ؛ بل إنهم فى بعض الأحيان يعجزون عن

تحديد الحواجز الفاصلة بين الحلال والحرام ، وذلك لأن حالة الغرائز والميول الإنسانية عند ضعيف العقل تظل فطرية أولية خالية من التعديل أو التهذيب ، أما الإنسان السوى فيستطيع أن يعدلها ويهذبها نتيجة احتكاكه بالجماعات التى يعيش بينها وتراكم الخبرات مع الأيام .

ولكن إذا كان لاستهواء ضعاف العقول دخل كبير فى تحويلهم إلى أدوات منفّذة للجريمة ، فقد أثبت طارق أنه غير قابل للاستهواء بدليل إرشاده الشرطة إلى المجرم الخطير الذى أراد أن يستغله فى عملية السرقة الكبرى بإغرائه باقتسام حصيلة السرقة معه وطمأنته بأنه سيفرج عنه بمجرد القبض عليه ، هذا إذا تم القبض عليه أصلاً ؛ ولذلك فهذا احتمال غير ممكن على الإطلاق ؛ لأنه ليس من طبيعة طارق .

عندئذ مضت فكرة كسهم ذهبى فى عتمة كل هذه الاحتمالات المتناقضة والمحيرة فسعد بها العقيد حازم ، لقد قرر أن يمنح طارق كل صلاحيات البحث عن القاتل ، فهو يقضى طيلة النهار متجولاً فى كل شوارع المعادى ، ومتردّداً على محال ومقاه كثيرة ، ويستطيع أن يجمع أية معلومات قد يعجز رجل المباحث فى الحصول عليها . استدعاه فى جلسة

أخوية حميمة ، وحوار متشعب فى كل القنوات ، قال له باسمًا :

– إياك أن تصدق أننى صدقت أنك القاتل .. هذا تفكير سخيف لا أعرف السر فيه ؟! .

– ولماذا أكذب ؟! .

– أين دليلك ؟! أخذنا بصماتك ولم نجدها على الجثة !! .

– المجرم العاتى لا يترك أى أثر له !! .

ضحك حازم وقد تأكد من جنون محدثه :

– لم أكن أعلم أنك مجرم عاتٍ بهذا الشكل المرعب !! ألا تعلم أن إصرارك هذا على الاعتراف قد يؤدى بحياتك إلى حبل المشنقة ! .

– ساعة القدر يعمى البصر !

– لم أكن أعلم أنك فيلسوف أيضاً !!

– أنتم أنفسكم تقولون : خذوا الحكمة من أفواه المجانين ! .

وهل تعتبر نفسك مجنونًا ؟

– اسأل كل سكان المعادى .. فهم يعرفون كل شيء وأنا لا أعرف شيئاً على الإطلاق !!

– أنت تعرف أن كل جريمة تحمل داخلها دافعاً أو سبباً أدى إليها .. فما السبب الذى دفعك إلى قتل فتاة لا تعرفها ؟!

– أهانت متسوّلاً صغيراً حاول أن يستجدى منها .. سبّته وأوشكت على أن تبصق فى وجهه .. فقررت خنقها !!

– وأين هذا المتسول الصغير ؟! هل رآك وأنت تخنقها هل تعرفه ؟!

– لا أعرفه .. ولم يرنى وأنا أخنقها ، فقد أطلق ساقيه للريح !!

– خوفاً منها أم خوفاً منك ؟!

– لا أدرى .. ذاب مثل فص ملح ..

– وأين جسم الجريمة ؟! أقصد الحبل الليفى الذى خنقتها به ؟!

– ألقيت به إلى جوار الجثة فى الترعة !! فأنا لا استخدم الحبل سوى مرة واحدة فى كل مرة !!

– مثل عشماوى تماماً !!

تهلت أساريره في نشوة غامرة :

– نعم .. مثل عشماوي تماماً !!

– هل تحب أن تقوم بدور عشماوي ؟!

– نعم .. أتمنى أن أشنق كل الذين يهينون الإنسان والحيوان !!

ضحك حازم بتلقائية وقد استمرا متعة الحوار :

– إذاً .. فأنت من المدافعين عن حقوق الإنسان ؟!

– والحيوان أيضاً !

– وهل تعتقد أن القتل هو جزاء من يسب متسولاً صغيراً ، عليه أن يعمل ويكد ليكسب قوته بدلاً من ذل الاستجداء ؟!

– على سكان العالم الضعفاء الفقراء البؤساء أن يقفوا صفاً واحداً ضد كل الجبابرة المفترين الذين يفسدون عليهم حياتهم !!

– وهل تنوى أن تستخدم الحبل الليفي مرة أخرى ؟!

– لا أعرف شيئاً !! لا أعرف شيئاً !!

– هل يجبرك المجرم الذى أبلغتنا عنه على ارتكاب مثل هذه الجرائم ؟! أنت تعلم أنه خرج من السجن أخيراً !!

– راح الزمان الذى يستطيع فيه أى إنسان مهما كان أن يجبرنى على فعل شيء لا أريده !!

لمح حازم وميضاً حاداً فى نظرات طارق لم يألفه من قبل ، وتلاشت الابتسامة الوديعة التى أصبحت علامة مسجلة على وجهه ، حاول أن يفاجئه بهذا السؤال :

– هل تظن أنك تسعى إلى البطولة والشهرة بمثل هذا الاعتراف ؟! إنك بذلك تصبح قاتلاً سفاحاً فى نظر كل الذين يحبونك !! هل تستبدل حبهم بالكراهية بهذه البساطة ؟!

– أنا لا أسعى إلى البطولة والشهرة .. فأنا مشهور بالفعل .. وإنما أسعى إلى الانتقام الأسود فى الظلام الحالك !

– الانتقام ممن ؟!

– من كل الجبابرة المفترين الذين يفسدون علينا حياتنا !!

شعر حازم بأن الحوار دخل دائرة مفرغة من العبث والجنون ، فتذكر المهمة التى استدعاه من أجلها ، قال له بنبرات هادئة خفيضة كأنها الهمس :

– أريدك أن تقوم بنفسك بمهمة البحث عن القاتل ، فأنت تكاد تعرف سكان المعادى فرداً فرداً .. أنت الوحيد الذى يمكنك القيام بهذه المهمة .. وكما ساعدتنا فى القبض على المجرم الخطير الذى أغراك بالسرقة من قبل .. سأكون سعيداً جداً إذا أرشدتنا عن سفاح المعادى الذى قد يغريه نجاحه فى التخفى بارتكاب جرائم أخرى .. ستصبح بطل المعادى الذى أنقذها من شر السفاح .. فأنت لا تحب أن نتركه حرًا ليقتل الناس الذين يحبونك ؟!

نهض واقفاً وهو يقول بعنجهية بالغة :

– سأظل أبحث عن نفسى .. وأعدك عندما أجدها .. سألقى القبض عليها وسأقدمها لك على طبق من فضة كى تلقى جزاءها على يدى العدالة التى لا تغفل ولا تنام !!

أوشك حازم على أن يطلق ضحكة ساخرة .. ساخرة من نفسه أولاً لأنه فكر فى الاستعانة بهذا المعتوه فى حل هذه المعضلة المستعصية .. وساخراً من هذا الأبله ثانياً لأنه استغل هذه الحادثة كى يطفح عليها بعقده الغامضة المحيرة التى تبدو أنها تقلق منامه بالليل وتطارده فى الشوارع بالنهار !! لم يعثر طارق بطبيعة الحال على أى مجرم

أو سفاح ، وعادت الحياة سيرتها الأولى ، ونسى سكان المعادى حديث الجريمة ، وإن كان طارق يصر فى كل أحاديثه على أنه القاتل ، وعندما يسأل عن كيفية ارتكابه للجريمة يحكى ما ورد فى الصحف والمجلات بلا أية معلومات جديدة أو مثيرة أو خفية ، مما جعله محل تندرهم وسخريتهم : وإطلاق لقب « سفاح المعادى » عليه !! لم يكن سعيداً بهذا اللقب على الإطلاق ، فتوقف عن إثارة هذا الموضوع مرة أخرى فنسيه الناس بكل تداعياته !

لكن سكان المعادى فوجئوا ذات فجر بجريمة أخرى مشابهة لتلك التى وقعت من قبل ، وإن كانت ملابساتها مختلفة بعض الشيء !! انتقلت الشرطة والنيابة للمعاينة إلى أحد الشوارع المتطرفة فى الحى والتى لا يقع على حافتها أكثر من ثلاث أو أربع فيلات بينها مساحات واسعة من الأرض الخلاء المليئة ببقايا الأحجار والطوب وأكوام الجير والرمال المتناثرة ، هناك كانت جثة فتاة شقراء جميلة أنيقة ملقاة بين الأحجار والرمال ، وقد جحظت عيناها وتدلى لسانها ، وقد بدت آثار الحبل الليفى غائرة حول عنقها الأبيض المرمرى !! .

كانت الفتاة متزوجة ؛ لكنها لم تكن على وفاق مع زوجها الذى كان يضربها ويعذبها باستمرار لشكه فى علاقة بينها

وبين ابن خالتها الذى كانت تحبه قبل سفره إلى الخارج وزواجه من أمريكية ؛ لكنه عندما حصل على الدكتوراه فى الهندسة وقرر العودة للاستقرار فى مصر رفضت زوجته الأمريكية العودة معه لنجاحها فى عملها كطبيبة هناك ، وتم الطلاق ليعود بمفرده وقد عاد معه الود القديم بينه وبين ابنة خالته مما جعل صواب الزوج المتهوّر يطيش ويحيل حياتها إلى جحيم ، فهجرت منزل الزوجية إلى بيت أمها لعلها تأخذ أجازة من هذا الجحيم المقيم ؛ لكنها لم تكن تعرف أنها بفعلتها هذه قد زادت الطين بلة ؛ لأنه ظن أنها هرعت إلى أمها للقاء عشيقها هناك خلسة ، فى حين أن الأمر لم يكن فيه أى عشق بالمرة ، وإن لم يخل من ود طبيعى بين أبناء الأسرة الواحدة .

لكن الزوج المسعور لم يأخذ الأمر على هذا المحمل بل انطلق كالإعصار إلى بيت حماته ليثير دوامة رهيبة من الصراعات ، والأحقاد خاصة عندما أصرت زوجته على طلب الطلاق هربًا من جنونه وعذابه وتعذيبه لها ، وفى نهاية اللقاء العاصف هددها أمام أمها بالقتل إذا لم تعد إليه فى ظرف أسبوع ، ومر الأسبوع ولم تعد ، فقد وجدت قتيلة فى ذلك الفجر الدامى !! .

وضاقت حلقات الاستجواب حول الزوج اليائس المتهور خاصة بعد أن شهدت حماته على تهديده إياها بالقتل ، وشهد الجيران على شجارهما الدائم ، وتهديده المستمر لها بتشويه جمالها وإصابتها بعاهة مستديمة ، ولم ينجح الزوج فى تبرئة نفسه ؛ لأنه لم يملك أى شاهد أو دليل يثبت وجوده فى مكان آخر غير مكان الجريمة وقت وقوعها ، فقد كان كل ما قاله : إنه كان نائماً بمفرده فى شقته ، وعندما سأله حازم عن أية مكالمة تليفونية جاءته من صديق أو أى إنسان فى فترة الجريمة ، أجاب بالنفى !! .

كانت كل الشواهد والأدلة ضد الزوج ؛ لكن العقيد حازم لم يكن مقتنعًا تماماً ، وذلك لوجود كل ما يثبت شخصية القتيلة معها فى حقيبة يدها الملقاة إلى جوارها !! فهل تركها الزوج القاتل المتهور عندما أحس بمن يراقبه أو يتابعه مثلاً أم أن تهوره لم يمكنه من إتقان جريمته ؟! وهل يعقل أن يلقى بجثتها فى الأرض الخلاء القريبة من بيت أمها ؟! وما سر الحبل الليفى المستخدم فى كل من الجريمتين ؟! هل كان الزوج هو القاتل فى الجريمة السابقة

أيضاً ؟! وخاصة أن القتيلتين تشتركان فى ملامحهما الشقراء وشعرهما الذهبى ؟! .

كلها احتمالات وافتراضات وتفسيرات تجمع بين الاستحالة والسخافة ، وتعود بحازم إلى نفس الدوامة السابقة ، بل وإلى دوامة أكثر عنفاً وقسوة ، إذ أن تكرار الجريمة بهذا الشكل الساخر سيمس مصداقية رجال المباحث عند أهالى الحى ! وفى قاع دوامة الحيرة والتساؤل يقتحم طارق مكتب العقيد حازم صارخاً بأنه القاتل أيضاً ويرجوه أن يقبض عليه ويودعه السجن حتى لا يقتل ضحية ثالثة ، وربما قتل نفسه بيده حتى يهرب من الإحساس بالذنب الذى يكاد يخنقه فى أعقاب كل جريمة يرتكبها !! .

تهللت أسارير الزوج البائس لمقدم طارق ؛ لكن سرعان ما انداحت الابتسامة الباهتة الطارئة من على وجهه عندما أمر حازم بطرده من مكتبه ، فهو ليس فى حاجة إلى مزيد من التشتت الذى يصنعه هذا الأبله المعتوه !! .

كانت هذه القضية أسوأ وأخطر بكثير من سابقتها التى قيدت ضد مجهول ، فقد أحيل الزوج البائس إلى المحاكمة

بتهمة قتل زوجته عمداً ومع سبق الإصرار والترصد ، وهى جريمة عقوبتها الإعدام ، مما ألقى بمسئولية جسيمة ومصيرية على كاهل العقيد حازم الذى أقلقه هاجس ممض أكد له براءة هذا المسكين ، فأطار النوم من جفونه . اعتبرها قضيته الشخصية التى سيظل فى أعقابها حتى يفض كل مغاليقها !

فهناك حياة إنسان متأرجحة بين الوجود والعدم !

عاد طارق إلى ترديد اعترافه بأنه القاتل فى الجريمة الثانية - أيضاً - وعندما دخل حازم فى طرق مسدودة وضاعت من يده كل الخيوط التى يمكن أن توصله إلى أية نتيجة ، عاد مرة أخرى لطرق باب طارق ، لعله يعرف - على الأقل - السر فى إصراره على أنه القاتل فى كل من الجريمتين . استدعاه إلى مكتبه ليتناول معه كوباً من الشاى . قال له برقة تصل إلى حد الاستعطاف :

- هذه المرة إذا لم ترشدنا عن القاتل ...

قاطعه بعد احتساء رشفة من الشاى الساخن :

- لن أرشدكم عن القاتل ؛ لأننى اعترفت بأننى القاتل !!

أوشك حازم على أن يفقد صبره :

– إذاً .. اثبت لنا أنك القـاتل .. فـهناك برئ سـيـتم إعدامه .. وستحمل أنت ذنب موته وزهـاق روحـه إلى الأبد !!

– سأثبت لك كل شيء !!

تنفس حازم الصعداء وقد أتى على كوب الشاى :

– تفضل !

– فى تلك الليلة كنت أسـيـر وأتجـول فى تلك المنطقـة المهجورة ..فرأيت تلك الشقراء التى ذكرتنى مشيتها بـ .. بـ ..

– ماذا؟!

– لا أتذكر !!

– حاول !!

– لا أستطيع !!

– على كل .. قل كل ما تعرفه !!

– سـار بالقـرب منهـا كلب ضـال .. لم يلتـفت إليـهـا ولم يسع خلفها ؛ لكنها استدارت إليه فى عصبية ثم انحنت على الأرض لتلتقط حجراً كبيراً وتقذفه به لتصيبه فى بطنه وساقه الخلفـيـة اليـسـرى . عـوى الكلب من الألم عـواءً يقطع القلوب

وجرى مبتعداً عنها كالسهم برغم ألمه وعرجه !! عندئذ لم أدر ماذا جرى لى ؟! انطلقت خلفها كالريح دون أن تشعر بوقع أقدامى ، وأخرجت من جيبى الحبل الليفى ودون أن تدرى كان حول عنقها ، يضيق بحوافه الشائكة فجحظت عيناها ، وتدلى لسانها إلى أن سقطت جثة هامدة على الأرض ، وعندما تأكدت من موتها ، سرت فى طريقى إلى بيتى لا أنوى على شيء !!

– عظيم .. لكن هذا لا يكفى ؟!

– لماذا ؟! ألم تقل لى ذات مرة إن الاعتراف سيد الأدلة ؟!

– لكنه فى حالتك ليس سيد الأدلة ؟! نريد منك الحبل الليفى الذى خنقتها به .. فهو الدليل المادى الذى يثبت حقيقة اعترافك !!

– ألقيت به إلى جوار الجثة ؟!

– أنت كاذب .. فتشنا المنطقة بوصة بوصة فلم نجد أثراً له !

– أنا لا أعرف الكذب !

– أنت لست كاذباً فحسب .. بل قاتلاً من نوع مراوغ أيضاً !!

– إذاً .. اقبض عليّ !.

– لن أقبض عليك إلا متلبساً !! إياك أيها المعتوه أن تظن أن في نفسك القدرة لأن تستهين بذكائي !! فأنا أعرف بماذا ذكرتك مشية الشقراء عندما رأيتها وقررت قتلها !!

فوجئ حازم بشهقة تصدر لأول مرة عن حلق طارق:

– بماذا ؟! بماذا ؟! بمن ؟! بمن ؟!

لأول مرة غمرت بوادر الإحساس بالانتصار أعصاب حازم المشدودة فأجابه بتساؤل شائك :

– أرأيت أنني أعرف كل شيء عنك ؟!

– ماذا تعرف ؟! ماذا تعرف ؟!

– لن أقول لك إلا إذا قلت أنت كل ما تعرف !!

– لم يتبقّ لي شئ لم أقله لك !!

– ثق أن حبل المشنقة لن يلتف حول عنقك حتى لو كنت قاتلاً !! فأنت لديك من الأسباب ما يخفف عنك العقوبة إذا لم

تحصل على البراءة .. لكن هناك بريئاً ينتظر حكم الإعدام المؤكد إذا أنت لم تنقذه ! أنت تدافع عن الضعفاء والبؤساء والمظلومين سواء بين الناس أو الحيوانات فهل ترضى بإعدام برئ لا ذنب له فيما اتهم به ؟!

– وإذا كان بريئاً فلماذا اتهمتوه بالقتل ؟!

– القانون لا يعرف سوى القرائن والأدلة المادية حتى لو كانت ظالمة !!

نهض طارق واقفاً دون مقدمات وهو يقول :

– إذا كان الإعدام قد كتب له .. فلا أحد يهرب من مصيره !! أما أنا إذا أعدمت فلن أقوم بالرسالة التى كتبت لى !!

– وما هى هذه الرسالة ؟!

– الدفاع عن كل الضعفاء والبؤساء والمظلومين والمساكين ضد الجبابرة المفترين الذين يفسدون عليهم حياتهم !!

شعر حازم بعدم جدوى الحديث مع هذا المعتوه الأبله الذى ربما يراوغه من منطلق الحكمة التى تؤخذ من أفواه

المجانين ! تركه يخرج ليقضى الليل بطوله فى استرجاع كل الكلمات والمعانى التى وردت فى حواره معه ، فكر فى وضعه تحت الرقابة لرصد كل تحركاته وسكناته ؛ لكنه يعرف كل المخبرين السريين !! فكر فى إحالته إلى الطبيب للكشف على قواه العقلية ووضعه فى مصحة لكى يتجنب المجتمع شروره ؟ لكن على أى أساس ، كما أن وضعه فى المصحة من شأنه أن يضيع الخيط الذى ربما أمسك به !! عندئذ فكر فى الاحتمال الوحيد المتبقى والذى استنبطه من حياة طارق الشخصية التى عانت كثيراً من اضطهاد زوجة أبيه الشقراء !! إنه حتمال ضعيف ؛ لكنه لم يتبق لديه غيره ، خاصة بعد أن داهم المخبرون شقته مفتشين عن أية دلائل أو قرائن وفى مقدمتها الحبل الليفى ، فلم يجدوا ما يشفى غليلهم على الإطلاق ، فإذا خاب هذا الاحتمال ، فليس أمام الزوج البائس السجين سوى انتظار حكم القدر !!

لم يكن حازم حريصاً على إثبات التهمة على طارق ، بقدر ما كان يلهث وراء الحقيقة عن أى طريق ممكن ، بعد أن سدّت كل الطرق المؤدية إليها ؛ بل إن معالم هذه الطرق قد ضاعت تماماً وتلاشت حدودها .

لاحظ طارق سيارة فاخرة تشبه السيارة التى كان أبوه يأتى بها لزيارته ، تقف عند الناصية عند منتصف الليل

بالقرب من بيته ، يقودها رجل فى مثل سن أبيه ، وتجلس إلى جواره شقراء تصغره بحوالى عشرين عاماً ، ويتحدثان لمدة دقائق ثم يتبادلان القبلات النارية ، وبعد ذلك تهبط من السيارة لتختفى فى شارع جانبى شبه معتم فى حين ينطلق هو بالسيارة إلى خارج المعادى !!

غلى الدم فى عروق طارق وطفح فى خلايا مخه فأوشك وعيه على الغياب ، وهو يرصد من شرفته المشهد المستفز الذى يراه لليلة الثالثة . بعد القبلات والأحضان الساخنة هبطت الشقراء صوب الشارع الجانبى شبه المعتم ، وفى أعقابها كان طارق ينطلق كالغزال الرشيق فى حذائه المطاطى وقد وضع يده اليمنى فى جيبه ، وعندما اقترب منها أخرج الحبل الليفى وأحاط به عنقها وشرع فى الضغط به إلى الخلف ؛ لكن العقيد حازم شرارة ورجاله انقضوا عليه كالصاعقة وقبضوا عليه بأذرع من حديد .

لم يقاوم . استسلم تماماً وهو يسير وسطهم منتفضاً باكياً ، نائحاً :

– كان لا بد أن أقتلها !! كان لا بد أن أخلص العالم من شرورها !! أرجوكم .. اتركونى أقتلها ثم اقتلونى .. أرجوكم .. أرجوكم !!

✿ ✿ ✿



ت : ٩٣٢٧٠٦